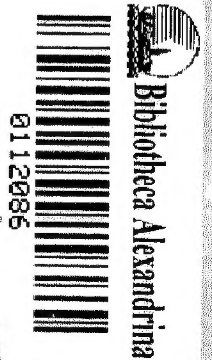
يَهُودُ يَثْرِبَ وَخَيْبَرَ

الغَزَوات وَالصِّرَاع

تـأليف

د. نـاصر السـيّد



المكتبة الثقافية
بـيروت

يهود يثرب وخيبر

يَهُودُ يَثْرِبَ وَخَيْبَر

الغَزَوات وَالصِّرَاع

تأليف
د. ناصِر السّيِّد

المكتبة الثقافية
بيروت

جميع الحقوق محفوظة للمكتبة الثقافية

الطبعة الأولى
١٤١٢ هـ - ١٩٩٢ م

تقديم

تتناول هذه الدراسات العلاقة بين يهود المدينة والنبي عليه الصلاة والسلام، وتتقصى تدرج الصراع الذي دار بين النبي والقبائل اليهودية الثلاث، بني قينقاع، وبني النضير، وبني قريظة، وانتقال هذا الصراع الى المنطقة المجاورة للمدينة في خيبر وما حولها وانتهائه باستسلام اليهود للنبي. وأسباب هزيمتهم وانتصاره وتشتمل الرسالة على ثمانية فصول.

(الفصل الأول): في صلة اليهود ببلاد العرب في التاريخ القديم، كما ترويها المصادر العبرية والمصادر العربية. وعرض لتطور الصراع بين القبائل اليهودية في المدينة وقبيلتي الأوس والخزرج حتى ظهور الاسلام.

(والفصل الثاني): في موقف اليهود من النبي منذ بعثته الى حين هجرته للمدينة وأثرهم في جدال قريش معه وفي تهيئة أهل المدينة لقبول دعوته وهجرته اليهم.

(والفصل الثالث): عن المعاهدة التي عقدها النبي في المدينة ونظم فيها أحوال المجتمع الجديد ووضع اليهود في هذا المجتمع وما لهم من حقوق وما عليهم من واجبات، ومناقشة لآراء بعض الباحثين حول شمول هذه المعاهدة، وتأريخها، ووحدتها.

(والفصل الرابع): عن الجدال الديني الذي بدأ في المدينة بين النبي

واليهود، وتطور هذا الجدال واحتدامه حتى بلغ مرحلة الخصومة والقطيعة.

(والفصل الخامس): عن بدء الصدام المسلح بين النبي واليهود في المدينة في معركته مع بني قينقاع، وكيف استطاع عزلهم عن كل سند يهودي أو عربي واخراجهم من المدينة.

(والفصل السادس): عن صدام بني النضير مع النبي ومحاولتهم الاتصال بقريش، وفترة الاغتيالات ثم أمره لهم بالجلاء ومقاومتهم، وكيف عزلهم ثم أجلاهم بعد أن شدد العقوبة، فذهبوا الى خيبر واستطاعوا تجميع جيش من القبائل العربية لغزو المدينة.

(والفصل السابع): عن تحول بني قريظة لجانب الغزاة، ثم حصار النبي لهم، وتركه الحكم فيهم لزعيم حلفائهم الأوس الذي حكم بقتل رجالهم وسبي نسائهم وذراريهم، وتنفيذ الحكم، وأثره على المنطقة.

(والفصل الثامن): عن محاولات المعارضة اليهودية في خيبر للثأر، وحصار النبي لخيبر عقب الحديبية ثم استسلامهم وخضوع بقية المناطق اليهودية المجاورة.

شكر وعرفان

يطيب لي وقد فرغت من هذه الرسالة أن أتقدم بالشكر لأستاذي العلاَّمة الدكتور عبدالله الطيب الذي كان لتوجيهه وارشاده أكبر الأثر في انجاز هذا البحث، كما أشكر لجامعة الخرطوم أن وهبتني منحة مالية يسرت لي أمر التفرغ لاعداد هذه الرسالة.

تمهيد

صلة اليهود ببلاد العرب في التاريخ القديم

مقدمة

يبدو أن جزيرة العرب كانت دائما ملاذا لبني اسرائيل كلما بطشت بهم احدى القوى السياسية الكبرى في فارس[1] والروم وحملتهم على الجلاء عن أرضهم، أو كلما اضطرت طائفة من اليهود الى الهجرة خوفا من تنكيل اليهود الآخرين بها، أو سعيا وراء التجارة والسعة في الارض والرزق، فأخذ بعض هذه الطوائف طريق القوافل التجارية الذي كان يمر بشمال الحجاز، كما أخذ بعضها طريق السفن البحرية في البحر الأحمر فانتهى بهم وابتدأ عند جنوب جزيرة العرب على سواحل اليمن. كما يبدو أن هجمات البدو من أعراب شمال جزيرة العرب كانت تتكرر بين الفينة والأخرى على القرى والمدن اليهودية المتاخمة وغيرها كلما أحس أولئك الأعراب ضعفا في القوى اليهودية المجاورة لهم أو كلما دفعتهم فترات الجدب والقحط التي تمر بهم من جراء تزايد عدد السكان أو شح الطبيعة بالأمطار[2]. ويبدو أن الاستقرار في رد بعض هذه

(١) كلمة فارس استعملناها هنا كاصطلاح الدول التي كانت تقوم في منطقة الشرق في أرض بابل والعراق وما وراء النهرين وذلك تفاديا لذكر كلمة «الشرق» التي قد تؤدي الى لبس بسبب استعمالها في السياسة العالمية المعاصرة.

(٢) د. كمال سليمان الصليبي التوراة جاءت من جزيرة العرب ـ بيروت ١٩٨٦ مؤسسة الابحاث العربية.

الهجرات كان يؤدي الى توغل اليهود في جزيرة العرب ومن ثم الى اكتشافهم لبعض الأماكن التي تصلح للسكن والاقامة. كما أن بعضهم ربما جاء به حب العزلة والانقطاع للعبادة ودراسة الكتب المقدسة بعيدا عن أجواء الاضطهاد.

ونلاحظ أن مواطن سكن اليهود كانت تتركز في شمال الحجاز في منطقة المدينة وفي جنوب جزيرة العرب في منطقة اليمن والمنطقتان كلتاهما تتميزان بالخصوبة والصلاحية للزراعة، كما أنهما تقعان في بقعتين تجاريتين فهما ذواتا شبه كبير بالبيئة الأولى لليهود النازحين من بيت المقدس وما حوله من أرض فلسطين. ولن نعرض ليهود اليمن ها هنا الا بحسب ما يقتضيه سياقنا وسنقتصر الحديث على يهود منطقة المدينة الذين هم أكثر اليهود أثرا في تاريخ العرب في صدر الاسلام.

المصادر العبرية

ونحن لا نستطيع أن نحدد تاريخا لبداية الصلات بين العرب وبني اسرائيل ويبدو لنا أنها ضاربة في القدم، فالاشارات الى العرب وذكرهم في كتب اليهود المقدسة كثيرة ومتعددة وهي تعيننا كثيرا في تبيان ضروب الصلات المختلفة التي قامت بينهم كما ترويها المصادر العبرانية. من ذلك أنه ورد في سفر التكوين[١] أن ابراهيم جد بني اسرائيل كان أيضا أبا لاسماعيل ومدين وكثير من القبائل الاخرى التي كانت تسكن في شمال جزيرة العرب، بل كان أيضا جدا لقبيلة شبا التي يدل اسمها وما ورد عنها أنها تعني منطقة سبأ في جنوب جزيرة العرب. ويقص علينا سفر التكوين أن ابراهيم أرسل أبناءه من سراريه الى بلدان المشرق بعد أن زودهم ببعض الهدايا وترك ابنه اسحق (جد بني اسرائيل) ليرث وحده أرض كنعان. وليست هنالك وسائل نستطيع أن نتحقق بها صحة هذه القصص من الناحية التاريخية الا أننا نلاحظ أن

(١) سفر التكوين الاصحاح الحادي والعشرون، والاصحاح الخامس والعشرون، وكذلك Goetein p. 31.

قصة ابراهيم وسارة وهاجر وإسحاق وإسماعيل قريبة الشبه جداً بالقصة التي نجدها في المصادر العربية[١].

وبجانب قصة سفر التكوين هذه، التي تشير الى الاصل المشترك، إشارات أخرى متعددة في أسفار العهد القديم تشير إلى علاقات اليهود بالعرب والى أحداث معينة تدل على قدم الاتصال وتشعب مناحيه. فقد عرف بنو اسرائيل العرب تجارا في صور، نجد مثلا لذلك في سفر حزقيال[٢] «العرب وكل رؤساء قيدار هم تجار يدك بالخرفان والكباش والاعتدة، تجار شبا ورعمة هم تجارك. بأفخر كل أنواع الطيب، وبكل حجر كريم والذهب أقاموا أسواقك». وفي سفر أشعياء[٣] نجد ان كلمة العرب تستعمل بمعنى الذين يسكنون الوعر[٤] كما نجدها تستعمل بهذا المعنى في سفر ارميا «في الطرقات جلست لهم كأعرابي في البرية ونجست الأرض بزناك»[٥] والخطاب ههنا لقبيلة اسرائيل.

ونجد أيضا اشارات أخرى في سفر نحميا في الاصحاح الثاني حينما أخذ نحميا في بناء سور أورشليم فكان أحد الملوك العرب ممن يسخرون منه[٦] «ولما سمع سنبلط الحوروني، وطوبيا العبد العموني، وجشم العربي هزأوا بنا واحتقرونا وقالوا ـ ما هذا الأمر الذي انتم عاملون أعلى الملك تتمردون. فأجبتهم وقلت لهم ان اله السماء يعطينا النجاح ونحن عبيده نقوم ونبني». وأما

---

(١) هل يجوز أن يقال إن مصدر القصص العربية اسرائيلي؟ ـ هذا أمر يستحق أن ينظر فيه في غير هذا الموضع.

(٢) حزقيال الاصحاح السابع والعشرون الآيات ٢١ ـ ٢٣.

(٣) اشعيا الاصحاح الحادي والعشرون الآيات ١٣ ـ ١٧ والأعراب في القرآن تستعمل بهذا المعنى. ولكنا نستبعد أن يكون لفظ عربي في التوراة يحمل في طيه نفس الوان التفرقة التي نجدها في العربية بين عربي وأعرابي.

(٤) ارميا الاصحاح الثالث الآية الثانية وانظر Jewish Encyclopedia Vol. II p. 41.

(٥) نحميا الاصحاح الثاني الآية ١٩ والآية ٢٠.

(٦) نحميا الاصحاح الرابع الآيات ٧ ـ ٩.

أنتم فليس لكم نصيب ولا حق ولا ذكر في أورشيليم ». وتستمر الاشارات الى هذا الملك العربي وتبين موقفه من بني اسرائيل ونبيهم بعد أن تمت أسوار أورشليم « ولما سمع سنبلط وطوبيا والعرب والعمونيون، والأشدوديون أن أسوار أورشليم قد رممت، والثغر ابتدأت تسد غضبوا جدا. وتآمروا جميعهم معا أن يأتوا ويحاربوا أورشليم ويعملوا بها ضررا. فصلينا الى الهنا وأقمنا حراسا ضدهم نهاراً وليلاً بسببهم ». ثم يسود لنا هذا السفر كيف أن أعداء نحميا وبينهم هذا الملك العربي قد تآمروا عليه « ولما سمع سنبلط وطوبيا وجشم العربي وبقية أعدائنا أني بنيت السور ولم تبق فيه ثغرة، على أني لم أكن الى ذلك الوقت قد أقمت مصاريع للأبواب، أرسل سنبلط وجشم اليّ قائلين هلم نجتمع معا في القرى في بقعة أونو. وكانا يفكران أن يعملا بي شرا »[1].

ونجد كذلك في الاصحاح التاسع من سفر أخبار الايام[2] الثاني قصة ملكة سبأ التي قدمت الى سليمان تمتحنه بمسائل وزارته في أورشليم « بموكب عظيم جدا وجمال حاملة أطيابا وذهبا بكثرة، وحجارة كريمة[3] ». ونجد في هذا الاصحاح آية تتحدث عن ثراء سليمان وأن العرب كانوا بعض مصادره[4]. وكان وزن الذهب الذي جاء به التجار في سنة واحدة ست مئة وستا وستين وزنة ذهب فضلا عن الذي جاء به التجار والمستبضعون. وكل ملوك العرب وولاة الأرض كانوا يأتون بذهب وفضة الى سليمان. « كما نجد في الإصحاح السابع عشر من هذا السفر ذكرا للأعراب وأنهم كانوا يأتون بالهدايا ليهو شافاظ الملك ملك اليهود[5] وبعض الفلسطينيين أتوا يهوشافاظ بهدايا وحمل

---

(١) نحميا الاصحاح السادس الآيات ١ ـ ٣.

(٢) اخبار الأيام الثاني الاصحاح التاسع الآيات ١ ـ ١٢.

(٣) المصدر نفسه الآيات ١٣ ـ ١٥.

(٤) أخبار الأيام الثاني الإصحاح السابع عشر الآية ١١.

(٥) أخبار الايام الثاني الإصحاح الحادي والعشرون الآية ١٦.

فضة والعربان أيضا أتوه بغنم، من الكباش سبعة آلاف وسبع مئة ومن التيوس سبعة آلاف وسبع مئة».

وفي الإصحاح الحادي والعشرين من هذا السفر أيضا نجد ذكرا آخر للعرب في سياق الحديث عن قصة يهورام الذي خلف أباه يهوشافاط، فان يهورام هذا لما بغى وظلم وأفسد كتب اليه النبي ايليا يخبره بما سيحل به من المصائب من مرض وثورات(١) «وأهاج الرب على يهورام روح الفلسطينيين والعرب الذين بجانب الكوشيين فصعدوا إلى يهوذا وافتتحوها وسبوا كل الأموال الموجودة في بيت الملك مع بنيه ونسائه أيضا ولم يبق له ابن الا يهوآحاز أصغر بنيه». ثم نجد في الاصحاح الثاني والعشرين متابعة لهذه القصة(٢) «وملك سكان أورشليم أخزيا ابنه الاصغر عوضا عنه لأن جميع الاولين قتلهم الغزاة الذين جاءوا مع العرب الى المحلة. فملك أخزيا بن يهورام ملك يهوذا». ونلاحظ أن العرب قد ذكروا هنا كأنهم من بعض مصائب الرب على بني اسرائيل.

وبجانب هذه الأخبار التي نجدها في أسفار العهد القديم هنالك بعض حفريات وجدت في جزيرة العرب تثبت أن جماعات من اليهود قد سكنت في شمال الحجاز منذ زمن بعيد يقول جويتن في كتابه ما يلي:

Jews And Arabs Their Contacts through The Ages «That Jews were present in Northern Arabia is: proved by the existance of Jewish Tombstones on ancient sites halfway between al Medina and Palestine. These date to an even earlier period, the year before and after the destruction of the Second Temple. The settlements must have been of considerable importance for the Jewish law had to make special regulations for them(3).

(١) أخبار الايام الثاني الإصحاح الحادي والعشرون الآيات ١٦ - ١٨.

(٢) أخبار الايام الثاني الإصحاح الثاني والعشرون الآية الاولى

(٣) Goetein p. 47.

وجاء في دائرة المعارف اليهودية بأن اليهود ربما كانوا قد نزحوا الى الحجاز على دفعات.

«Jews may have settled in the Hijaz after the sack of Jerusalem by Nebuchadnezzar, and it is probable that they came in successive colnies, e.g. after Pompey's attack upon Jedea (64 B.C.), after Titu's conguest of Jerusalem (70 C,E.) and again after Hadria n's Persecution of the Jews (in 136 C.E.)[1].

المصادر العربية

أما المصادر العربية فإنها تقص علينا عدداً كبيراً من الروايات لا تختلف في جوهرها عما ورد في المصادر العبرية[٢] وتتميز عليها بأنها تضم كثيراً من الأخبار عن مجيء اليهود الى شمال الحجاز وسكناهم في منطقة المدينة. فنجد مثلا في مخطوطة كتاب «الخبر عن البشر في المجلد الثاني من الجزء السادس «ويقال ان بني اسرائيل بعد تملكهم الشام بعثوا الى الحجاز بعثا فقاتلوا داسم وهي أمة من العمالقة وملكهم يقال له الأرقم ابن الأرقم بوصية من موسى لهم بذلك وأن لا يبقوا منهم محتلما فقتلوا الأرقم وقومه الا ابن الأرقم فإنهم أبقوه وعادوا فوبخوا على بقائهم وأعيدوا الى الحجاز فملكوا يثرب ونزلوها وهم يهود خيبر وقريظة والنضير بنو الجرج بن ينحوم بن عازرا بن عزرا بن هرون النبي عليه السلام، واليهود لا يعرفون هذا الخبر ومنهم من يقول انما كان ذلك في زمان طالوت والله أعلم» أ. هـ.[٣].

وهذه الرواية قريبة من رواية «الاغاني»، وان كانت رواية الأغاني تختلف

---

(١) The Jewish Encyclopedia Vol. viii, p. 422.

(٢) انظر تاريخ الطبري جـ١ ص٣٨٢ - ٣٨٣ وكذلك وفاء الوفاء بأخبار دار المصطفى للسمهودي جـ١ ص١٠٩ - ١١٦.

(٣) مصورة مخطوطة كتاب الخبر عن البشر للمقريزي بدار الكتب المصرية بالقاهرة تحت رقم ١٩٤٧ تاريخ - المجلد الثاني من الجزء الثاني من المخطوطة ص- ١٥٩.

عنها في تعليل عدم قتل ابن الأرقم بأنه كان وضيئا جميلا كما ان رواية الأغاني لا تجعل مجيء بني قريظة وبني النضير في زمن هذا الغزو الأول وانما تجعله تاليا له، اذ أنهما قد جاءا حسب رواية الاغاني فرارا من اضطهاد الروم لبني اسرائيل. ولعله من المفيد أن نذكر هنا نص الأغاني لتتضح المقارنة بين الخبرين. جاء في الاغاني «كان ساكنو المدينة في أول الدهر قبل بني اسرائيل قوماً من الأمم الماضية يقال لهم العماليق وكانوا قد تفرقوا في البلاد وكانوا أهل عز وبغي شديد، فكان ساكن المدينة منهم بنو هف وبنو سعد وبنو الأزرق وبنو مطروق وكان ملك الحجاز منهم رجل يقال له الأرقم ينزل ما بين تيماء الى فدك وكانوا قد ملأوا المدينة ولهم بها نخل كثير وزرع. وكان موسى بن عمران عليه السلام قد بعث الجنود الى الجبابرة من أهل القرى يغزونهم، فبعث موسى عليه السلام الى العماليق جيشا من بني اسرائيل وأمرهم أن يقتلوهم جميعا إذا ظهروا عليهم ولا يستبقوا منهم أحدا، فقدم الجيش الحجاز فأظهرهم الله عز وجل على العماليق فقتلوهم أجمعين الا ابنا للأرقم فانه كان وضيئا جميلا فضنوا به على القتل وقالوا ـ نذهب به الى موسى عليه السلام فيرى فيه رأيه، فرجعوا الى الشام فوجدوا موسى عليه السلام قد توفي. فقالت لهم بنو اسرائيل ـ ما صنعتم؟ فقالوا ـ أظهرنا الله جل وعز عليهم، فقتلناهم ولم يبق منهم أحد غير غلام كان شابا جميلا فنفسنا به عن القتل وقلنا نأتي به موسى عليه السلام فيرى فيه رأيه. فقالوا لهم ـ هذه معصية قد أمرتم ألا تستبقوا منهم أحدا، والله لا تدخلون علينا الشام ابدا، فلما صنعوا ذلك، قالوا ـ ما كان لنا خير من منازل القوم الذين قتلناهم بالحجاز نرجع اليهم فنقيم بها فرجعوا على حاميتهم حتى قدموا المدينة فنزلوها. وكان ذلك الجيش أول سكن يهود المدينة. فانتشروا في نواحي المدينة كلها الى العالية فاتخذوا بها الآطام والأموال والمزارع ولبثوا بالمدينة زمانا طويلا.

ثم ظهرت الروم على بني اسرائيل جميعاً بالشام فوطئوهم وقتلوهم ونكحوا نساءهم، فخرج بنو النضير وبنو قريظة وبنو بهدل هاربين منهم الى من

بالحجاز من بني اسرائيل لما غلبتهم الروم على الشام[1].

وهنالك نصوص أخرى تحدث عن بعض الحروب التي دارت بين بني اسرائيل وأولئك العماليق، جاء في كتاب الخبر عن البشر[2] أنه في أيام الحرث ابن مضاض زحف بنو اسرائيل إلى مكة وبها جرهم وعملاق والقائم بدين اسمعيل هميع بن نبت بن قيدر بن اسمعيل، فخرجت جرهم والعماليق اليهم فهزموهم وأخذوا منهم التابوت ودفنوه بمزبلة فنهاهم الهميع بن نبت وقد بادت العماليق بنو عملاق بالوباء حتى لم يبق منهم سوى عشرين رجلا، وبادت جرهم بالطاعون[3] فلم يبق منهم الا ثمانية رجال وقد حدثت هذه الحادثة حسب ما جاء في صدر هذا الخبر في ابان حكم داود وابنه سليمان.

وثمة رواية أخرى في هذا المجلد يستشف منها أن بني اسرائيل هم الذين انتصروا في الحرب بينهم وبين العمالقة، وأنهم كانوا بقيادة يوشع[4]. وقيل إن ملك العمالقة الذي قتله يوشع اسمه السميدع بن هوبر بن مالك وأنه لقيه ومعه بنو مدين وفي ارضهم فقال سعد الجرهمي في ذلك:

ألم تر أن العملقي بن هوبر ... بأيلة أمس لحمه قد تمزعا
تداعت عليه من يهود جحافل ... ثمانون ألفا حاسرين ودرعا

والمبالغة واضحة في هذا العدد لا تحتاج الى بيان ولا يخالجنا شك في أن الشعر مصنوع.

ونجد كذلك رواية أخرى تذكر أن ملك العمالقة كان اسمه السميدع بن هوبر، وأن الذي قتله هو يوشع بن نون وأن أكثر حروب بني اسرائيل مع

---

(١) الاغاني جـ١٩ ص – ٩٤ – ٩٥.

(٢) المجلد الثاني من الجزء الثاني في مخطوطة الخبر عن البشر ص ٢٧٠ – ٢٧١.

(٣) لعل الطاعون ههنا هو نفس النمل الذي ذكره أبو عبيد في مقدمة معجم ما استعجم ص – ٢٥.

(٤) الملجد الثاني من الجزء الثاني من مخطوطة الخبر عن البشر ص – ٣٣٣.

هؤلاء العمالقة كانت بأيلة[1] فغلب يوشع السميدع وابتزه ملكه وملك أريحا قاعدة الشام أيضاً ثم بعث بعثاً من بني اسرائيل الى الحجاز فملكوه وانتزعوه من أيدي العماليق ملوكه ونزلوا يثرب وبلادها وخيبر ومن بقاياهم يهود قريظة والنضير وقينقاع وساير يهود الحجاز[2].

ونلاحظ أن هذه الروايات مضطربة ومتداخلة. ولكن الذي لا شك فيه أن هنالك بطونا يهودية سكنت في جزيرة العرب وكان لها أثر واضح في الحياة هناك في شتى المجالات والنواحي، الإقتصادية منها والأدبية والاجتماعية. وأشهر هذه البطون اليهودية وأكثرهم أثرا هم أولئك الذين سكنوا يثرب. جاء في الأغاني[3]: «فكان ممن يسكن المدينة، حتى نزلها الأوس والخزرج، من قبائل بني اسرائيل ـ بنو عكرمة، وبنو ثعلبة، وبنو محمر، وبنو زغورا، وبنو قينقاع، وبنو زيد وبنو النضير، وبنو قريظة، وبنو هدل، وبنو عوف، وبنو الفصيص فكان يسكن يثرب جماعة من أبناء اليهود فيهم الشرف والثروة والعز على سائر اليهود «وقد كان يقال لبني قريظة وبني النضير «الكاهنان» وقد مر بنا أنهم كانو ينتسبون الى هارون عليه السلام»[4] وهذا مما يوحي بأنهم ربما كانت لهم مكانة دينية خاصة. وقد كان يساكنهم في المدينة أحياء من العرب، كما جاء في رواية الأغاني وغيرها، وليس فيما بين أيدينا من المصادر ما يبين لنا طبيعة العلاقة بين اليهود وبين هذه الأحياء من العرب الذين كانوا يساكنونهم المدينة قبل مجيء الأوس والخزرج. ولعل بعض هذه الأحياء قد تلاشى في الجماعة اليهودية وأن بعضهم قد تسلل من المدينة أو أخرج منها فالتحق بالقبائل العربية المجاورة في شمال الحجاز أو جنوبه وأن

---

(١) عقد المقريزي فصلا وافيا عن العماليق راجع ٢/٢/ص٢٦٣ ـ ٢٦٨. من الخبر عن البشر.

(٢) المجلد الثالث من الجزء الاول من الخبر عن البشر ص٣٧٦ ـ ٣٧٧.

(٣) الاغاني جـ١٩ ص٩٤.

(٤) الاغاني جـ١٩ ص٩٥.

بعضهم قد بقى في المدينة[1] وهؤلاء هم الذين نجد في الأخبار أنهم دخلوا في أحلاف الأوس والخزرج.

الأوس والخزرج

جاء في كتاب الخبر عن البشر فصل طويل بعنوان «فصل في ذكر الأوس والخزرج»[2] فيه سرد لقصة الأوس والخزرج منذ خروج الأزد من اليمن بعد فساد سد مأرب وفيه دلالة على مكانة العرافة عند العرب وأهميتها في اختيار مواطن السكن أو في تفسير أحداث التفرق والاقامة. ولعله من المفيد ان نضمن رسالتنا هنا جزءاً من هذا الفصل عسى أن يلقي ضوءاً على علاقة الأوس والخزرج بكثير من القبائل العربية ويعيننا على تبيين علاقتهم باليهود منذ البداية حتى مطلع الاسلام.

جاء في هذا الفصل[3] وكان سبب نزول الأوس والخزرج يثرب أن عمرو مزيقيا بن عامر لما سار بالأزد من مأرب خوفا من السد، ثم مات قام من بعده ابنه ثعلبة العنقاء بن عمرو مزيقيا - وسار بمن معه لطلب المنازل والمناهل حتى نزل بالسراة وهو الجبل المطل من اليمن على تهامة وهو الحجاز الذي حجز بين اليمن وتهامة وبه قيل الحجاز، فلما أصعد فيه عثر البعير الذي كان يحمل صنمهم الذي يعبدونه وهو مناة فوقع عن الجمل فانكسر نصفين فوقع الصدر والبدن مما أقبل على مكة ووقع العجز والرجلان مما يلي خلف البعير فصاحت طريفة بنت الخير الكاهنة وشقت جيبها وخمشت وجهها على الصنم

(١) السمهودي «وفاء الوفا» ص١٢٥ - معجم ما استعجم جـ١ ص٢٧ - ٣٠.

(٢) فصل في ذكر الأوس والخزرج ص١٩٧ - ٢١٥ من الجزء الثاني من المجلد الثاني من المخطوطة.

(٣) ص٢٠١ المرجع نفسه.

فاجتمع نساء الأزد اليها فجعلت تولول وتقول[1] ـ واه واه وأسفاه على مسناه اليوم رنين وعواه فمن أبكي اليوم بعد صنماه ومن دام[2] (لعلها دمي) الحرب أنحاه « فكان ذلك أول نوح كان في الناس ». ثم قالت ـ اليوم أخصكم بالبيان يا بني قحطان ـ من كان ذا همّ بعيد، ومزاد جديد وحمل شديد فليلحق بكـاد وكود وقصر عمان المشيد. فكانت هذه صفة من سار الى عمان من الأزد، ومن كان يريد بلداً عاليا وعيشا رابيا ومسلكا دانيا فليلحق بالشرق معاليا. فكانت هذه صفة جذيمة الأبرشيُ ومن نزل الحيرة من الأزد. ومن كان يريد الراسيات في الوحل المعلمات في المحل فليلحق بيثرب ذات النخل، فكانت هذه صفة الأوس والخزرج. ومن كان يريد خمرا وخميرا ودهنا وفيرا فليلحق بصرى وعويرا، فكانت هذه صفة آل جفنة ومن تبعهم من غان فنزلوا الشام. ومن كان ذا ضعف وضر وصبر على أزمات الدهر، فلينزل الأراك من بطن مر، فكانت هذه صفة خزاعة ومن تبع ربيعة بن حارثة بن عمرو مزيقيا. ومن كان ذا حمل معن وجعل فنن ورأي لا يكن فلينزل أرض شن، فكانت هذه صفة أزد شنوءة ومن نزل منهم السراة وهو ظهر الجبل الحاجـز بين اليمـن وتهامة من ولد (الهنو)[3] وهم: عوها، وقوالة، والحجر، وأفكة، بنو الهنو وبنو نصر، وقبائل دهمان الذين غلبوا العماليق على الأرض وانتزعوها من أيديهم.

فلما أجمع حارثة العنقاء على المسير الى يثرب وقد تفرقت القبائل الى حيث أشارت اليهم طريفة قالت:

« يا ثعلبة خذ الجمل الأزور فضرجه بالدم الأحمر وأرسلوه بين ايديكم

---

(١) أنظر أيضاً ـ تفسير الطبري لقصة سبا في سورة سبأ ١٥ ـ ٢١ الجزء ٢٢ وتاريخ الطبري جـ ١ ص٣٨٣. وكذلك السمهودي ص١١٦ ـ ١٢٥.

(٢) لعلها دمي.

(٣) كذا في الأصل.

يمشي بكم على قدر حتى ينزل بكم البلد الأغر الذي يولد فيه النبي الأزهر فأنزلوه على ذعر وحذر. فأخذوا جملا أزور وخضبوه بالدم ثم تركوه فسار نحو مكة وثعلة يتبعه حتى لحق بابنيه الأوس والخزرج وقد قدمها امامه قبل مسيره. فلما انقضت حروبهم مع جرهم وسار ثعلبة مات. فقام من بعده ابنه حارثة أبو الأوس والخزرج ومضى الى الشام فتخلف عنه بيثرب ابناه الأوس والخزرج في طائفة وكان فيها قرى وأسواق وبها من اليهود قريظة والنضير وقينقاع، ومأسلة. وقد بنوا لهم حصونا تحميهم عند خوفهم العدو وقدم حارثة الشام فكان من محاربة الروم ما كان ثم عاد الى يثرب وملك اليهود يومئذ شريف بن كعب. فتعاهدا[1] على أن تنزل غسان البادية فمضى العهد.

ثم أن رجلا من غسان اشترى كرباسا من يهودي بأربعة دراهم ثم بدا له فرده على اليهودي فلم يرض بالرد وتخاصما الى ملك اليهود[2] فسب غسان وردهم اقبح رد. فقام جذع في ذلك حتى جمع حارثة لحرب يهود وقتلوا منهم عدة وملكوا دورهم بما فيها وأجلوا اليهود الى القرى. فجمعت اليهود اليها أهل العوالي وخيبر وتيماء وفدك. فخدعتهم غسان وطلبوا منهم الصلح فأجابوا الى ذلك وعقدوا بينهم وبين حارثة بن ثعلبة صلحا[3] على أن لغسان من منازل ما يكفيهم ويسعهم فسكنت غسان ويهود جميعا حتى مات حارثة، وقام من بعده ابناه العجلان بن حارثة بن ثعلبة العنقا، ومات أيضا جذع بن عمرو فطمعت اليهود فيهم وهموا بهم. ثم رأوا أن الكيد انجع فأرسلوا اليهم في الشكوى من أن قوم غسان يسرقون أموالهم، وأرادوا منهم الاجتماع بهم للنظر في ذلك. فمشت مكيدتهم على غسان وأتاهم منهم مائة من أعيانهم. فقتلوهم

---

(١) يلاحظ أن هذه أول معاهدة بين الأوس والخزرج واليهود.

(٢) المخاصمة الى ملك اليهود تعني أن السلطة كانت بيدهم فهم سادة الموقف.

(٣) هذه هي المعاهدة الثانية بين اليهود والأوس والخزرج.

عن آخرهم وثاروا على منازل الأوس والخزرج ونهبوا وسبوا[1].

الاستعانة بالغساسنة

فسار الجلاح بن عوف بن الخزرج الى أبي جبيلة بن عبدالله بن حبيب بن عبد حارثة بن مالك بن غضب بن جشم بن الخزرج -ملك غسان بالشام مستغيثا به. فسار بعساكره فجمعت يهود تريد محاربة غسان فثارت بهم غسان واقتتلوا فكانت على يهود وقتل ملكهم شريف بن كعب في عدد كبير فقام من بعده ابنه الفطيون واسمه جوني. وأقبل أبو جبيلة الغساني فأتته يهود خاضعة وأحضروا من سبوا من نساء غسان. فأمر بهم فقتل منهم مائة رجل وسبا مائة امرأة فأقامهن بين يديه وعليهن الحلى والحلل وأمر بوصفهن. فقال الرمق بن زيد بن غنم بن سالم بن مالك بن سالم بن عوف بن عمرو بن عوف ابن عمرو بن عوف بن الخزرج:

أمضى اليمين على اليسار فقد غنيت وقد غنينا
الراشقات المرشقات الحاكمات بما هوينا
المرسلات اللحظ من حدق تميت الناظرينا
النازلات على القلوب من الدلال بحيث شينا
فكأنهن لدى المليك ظباء وجرة صادرينا
أمثال غزلان الصريمة يلتبسن ويرتدينا
الوشي والديباج والحلي المضاعف والبرينا
وأبو جبيلة خير من يمشي وأوفاه يمينا
وأبرهم خلقا وأعلمهم بعلم الأولينا

---

(١) يلاحظ أن هذه الوسيلة في الفتك بالأعداء قد استعملها كلا الجانبان.

وابرهم برا وأعلمهم بهدى الصالحينا
ينشي لنا عزا فويق النجم يستغشي العيونا
ملك له عز يسوق بوجه رايته المنونا
وأسنة زرق واسياف يقمن وينحنينا
ومحلها روس الأشاوس فالملوك المارقينا
أضحت به غسان في أعلا المحلة قادرينا
طحنوا به عزم العدى من بعد عزهم طحينا
ومشوا به في يثرب بعد المخافة آمنينا
أبقت لنا الأيام والحرب المهمة تعترينا
كبشا لنا ذكر يفل حسامه الذكر السنينا

فقال له أبو جبيلة: عسل طيب في وعاء سوء، وفي رواية عسل طيب في وعاء خبيث وكان الرمق ضئيلا ذميم الوجه حقيراً « فقال: انما المرء بأصغريه قلبه ولسانه ».

ورجع أبو جبيلة الى الشام ثم مات بعد مسيرة وقام من بعده ابنه فسار مالك بن العجلان بن زيد بن سالم بن عوف بن عمر بن عوف بن الخزرج في نفر لتهنئته بالملك حتى مر ببني قريظة، فعرس قريبا منهم، وقام في الليل لحاجته فلم يوقف له على خبر وعاد من كان معه الى أبيه العجلان فطوى كشحه على الحزن أياما الى أن بلغه أنه ألقى في بئر لبني قريظة، فأخرجه ودفنه في خفية وقد أضمر مكيدة لليهود حتى طالت الأيام ثم عمل طعاما دعا اليه الناس ومنهم أشراف قريظة والنضير فأتوه في مائة من سراتهم فصار يدخلهم الى قصره عشرة بعد عشرة وكلما دخلت عشرة قتلها حتى أتى على بضع وثمانين رجلا ثم أحس الباقون ففروا وأعلموا الفطيون ملكهم فجمع يهود الحجاز وتيماء وفدك ثم زحف بهم فكانت بينهم مقتلة عظيمة. فاستمدت

غسان بطيء[1] وقاتلوا اليهود فهزموهم وقتلوا منهم عالماً كبيراً منهم الفطيون.

وقيل بل الذي قام بهذه الحروب وقتل الفطيون مالك بن العجلان بن زيد بن غنم بن سالم بن مالك بن سالم بن عوف بن عمرو بن عوف بن الخزرج وكان سيد الأنصار في زمانه ساد الحيين جميعاً الأوس والخزرج فقتل الفطيون (وأذل)[2] اليهود.

قصة الفطيون[3]:

وقيل بل كان الفطيون رجل سوء فاجراً لا تتزوج امرأة الا أدخلت عليه قبل زوجها. فتزوجت أخت مالك بن العجلان وخرجت ليلة بنائها على أخيها وهو في قومه وقد كشفت عن ساقها فقال لها مالك: لقد جئت بسوءة. فقالت: الذي يراد بي الليلة أشد من هذا. أدخل على غير زوجي، ثم عادت. فدخل عليها مالك. فقال هل عندك من خبر؟ قالت: نعم. فما عندك؟ قال أدخل مع النساء فاذا خرجن ودخل عليك قتلته. قالت: أفعل. فلما ذهب بها النساء الى الفطيون انطلق مالك معهن في زي امرأة ومعه سيفه فلما خرج النساء من عندها ودخل عليها الفطيون قتله مالك وخرج هاربا حتى قدم الشام على أبي جبيلة وشكا اليه ما كان من الفطيون وأخبره بقتله اياه. فعاهد الله أبو جبيلة أن لا يمس طيبا ولا يأتي امرأة حتى يذل اليهود بالمدينة وتكون الأوس والخزرج أعز أهلها. وسار في جمع عظيم على أنه يريد اليمن حتى قدم

---

(١) يروى أن كعب بن الأشرف الذي سنتحدث عنه فيما بعد كان طائيا وأمه من بني النضير - فهل من صلة بين طيء واليهود بيثرب منذ الدهر القديم؟

(٢) في النسخة الخطية (اذلال) وقد أثبتناها بعد اصلاحها ليستقيم السياق.

(٣) ونحن نروي قصة الفطيون هذه على علاتها ونلاحظ أنها قريبة الشبه بقصة عمليق ملك طسم، وقصة لخنيعة ينوف ذو شناتر الحميري. أنظر نوادر المخطوطات - المجموعة السادسة ص١١٧ - وص١٣٧.

يثرب ونزل بذي حرض فخرج اليه أشراف اليهود في خدمهم وحشمهم وخاصتهم وأتتهم الأوس والخزرج فلما اجتمع اليهود ببابه أمر بهم فأدخلوا عليه رجلا بعد رجل وقتلهم جميعا فعزت الأوس والخزرج من حينئذ وشاركت اليهود في النخل والدور.

ويروي المقريزي[1] خبرا آخر للاستعانة بأبي جبيلة وقيل بل وفد مالك بن العجلان الى أبي جبيلة فأخبره بحالهم وضيق معاشهم فقال له: ما نزل قوم بلدا الا غلبوا أهله عليه فما بالكم ثم خرج الى يثرب وبعث الى اليهود بأن الملك يريد زيارتكم فأعدوا له نزلا، ففعلوا وقدم عليهم فمكر بهم وقتل وجوههم. وقال للأوس والخزرج ان لم تغلبوا بعد هذه فلا خير فيكم فأقاموا زمنا واليهود تناوئهم ثم عكر بهم مالك بن العجلان فقتل بضعة وثمانين من أشرافهم فذلوا ولم يمتنعوا. ويقول المقريزي أيضاً في الأكليل للحسن بن أحمد الهمداني أن عمرو بن حسان هو الذي قتل اليهود. قال ولم يستجلب أبو جبيلة الى المدينة لكثرة حصونها انما يدعى لها مثل آل جفنة وآل المنذر. قال جامعه ومؤلفه ـ أي المقريزي ـ «هذا القول من الهمداني يشعر بأن أبا جبيلة من غير آل جفنة وانه لم يكن ملكا وقد قيل ذلك». ويستطرد المقريزي فيسرد ما حدث بعد هذه الحرب فيقول:

وأقامت غسان بالحجاز بعد ذلك لا ينازعهم منازع، فلما كثروا وضاق البلد بهم ارتحلت بنو عمرو بن عمران بن كهف الظلم بن عدي بن حارثة بن عمرو مزيقيا وتتابعت قبائل غسان به يريدون أرض الشام حتى لم يبق بيثرب من غسان الا الأوس والخزرج وبنو الحسحاس بن جدع بن سنان، ثم رحل بنو الحسحاس بعد مدة الى الشام فطمعت اليهود في الأوس والخزرج واستنجدوا بعطوق الطسعي من اليمامة وبدليل بن شريك الحريسي وبكامل بن

---

(١) الخبر عن البشر جـ٢ م٢ ص٢٠٥.

علقمة الراسي فأتوهم في أعداد كثيرة فقتلوا وسبوا كثيراً ومن حينئذ انقطع الملك في بني حارثة وأقاموا بيثرب مستفقين زمانا، وكان شرف الخزرج في الخرطومين مالك وعوف ثم صار الى مالك بن العجلان. وكان القواقل من أعز يثرب. ثم حالفت بنو قينقاع الخزرج وكانوا أقل اليهود عددا، وحالفت قريظة والنضير الأوس على كره.

ويستفاد من سائر هذه الأخبار أمر واحد وهو أنه كان في هذا الزمن للعرب الغساسنة الشآميين، كأبي جبيلة، ضلع كبير في خلافات الأوس والخزرج ويهود المدينة ولا يستبعد أنه قد كان الروم أنفسهم هم المحرضين للغساسنة الشاميين.

اليهود والحروب بين الأوس والخزرج:

يبدو أن الاحلاف التي قامت بين الأوس وبني قريظة وبني النضير من جانب وبين الخزرج وبني قينقاع من الجانب الآخر قد سبقتها مرحلة بدأ الخلاف والتنافس يدب فيها بين قبيلتي الأوس والخزرج اللتين كانتا تكونان معسكراً واحداً أول الأمر: يروي السمهودي في «وفاء الوفاء بأخبار دار المصطفى[1] » نقل رزين عن الشرقي: أن الأوس والخزرج لبثوا بالمدينة ما شاء الله وكلمتهم واحدة ثم وقعت بين الأوس والخزرج حروب كثيرة حتى لم يسمع قط في قوم أكثر منها ولا أطول أولها حرب سمير» ومما ورد في سبب حرب سمير نستطيع أن نقول إنه كان يتنازع الشرف في المدينة في ذلك الوقت ثلاثة رهط هم: الأوس والخزرج واليهود. يقول المقريزي[2] «فلما تمادى الاتفاق بين الأوس والخزرج زمانا وقع بينهم الاختلاف بعد ذلك، فكان حرب سمير أول اختلاف وقع لهم، ذلك أن رجلا من بني ثعلبة بن

---

(١) السمهودي جـ١ ص١٥٢.

(٢) الخبر عن البشر جـ٢ م٢ ص٢٠٦.

سعد بن ذبيان يقال له كعب أحدث في قومه حدثا وهرب الى المدينة فنزل على مالك بن العجلان وحالفه وأقام معه ثم خرج يوما الى سوق بني قينقاع واذا برجل من غطفان معه فرس وهو يقول: ليأخذ هذه الفرس أعز أهل يثرب». فقال له كعب: أعز اهلها مالك بن العجلان الخزرجي، وقال آخر: احيحة بن جلاح الأوسي أفضل أهلها، وقال آخر بـل فلان اليهـودي أفضـل أهلها فدفع الغطفاني الفرس الى مالك بن العجلان. فقال كعب: ألم أقل لكم أن حليفي مالكا أفضلكم «فغضب من ذلك رجل من الأوس من بني عمرو ابن عوف يقال له سمير وشتمه وافترقا» ويقص علينـا المقـريـزي خبر حـرب سمير هذه الحرب التي دخلت فيها سائر بطون الأوس والخزرج، كما يقص علينا أخبار حروب كثيرة أخرى نشبت بينهم مثل حرب كعب بن عامر المازني، ويوم السرارة، وحرب فارع، ولا نجد ذكرا لليهود في كثير من هذه الحروب والراجح عندنا أنهم قد اشتركوا في كثير من هذه الحروب كل مع حليفه ولكن الرواة لم يكترثوا لذكرهم لأنهم كانوا في مرتبة الحليف ومرتبة الحليف هي المرتبة الثانية عند العرب.

حرب حاطب:

ولكنا نجد ذكراً صريحاً لاشتراك اليهود في عدد من هذه الحروب مثل حرب حاطب. يقول المقريزي «ثم كانت حرب حاطب ويقال لها يوم الجسر وكانت بعد حرب سمير بنحو مائة سنة سببها أن حاطب بن قيس من بني أمية بن زيد بن مالك بن الأوس كان سيداً شريفاً فنزل عليه رجل من بني ثعلبة بن سعد بن ذبيان وغدا يوما الى سوق بني قينقاع فرآه يزيد بن الحرث المعروف بابن فسحم أحد بني الحرث بن الخزرج فقال لرجل من اليهود لك رداء أي ان كسعت است هذا الثعلبي، فأخذ رداءه وكسعة كسعة سمعهـا مـن بالسوق، فنادى الثعلبي يا لحاطب كسع ضيفك وفضح فجاءه حاطب وضرب اليهودي بالسيف وفلق هامته، فثار به ابن فسحم وقد دخل بيوت أهله فلقيه

رجل من بني معاوية فقتله فثارت الحرب بين الأوس والخزرج» والذي نلاحظه أن شرارة هذه الحرب قد انطلقت في سوق بني قينقاع وهم حلفاء الخزرج من اليهود. وأن الذي بدأها أحد يهود قينقاع استجابة لتحريض سيد من سادات الخزرج.

يوم الفجار الثاني

روى المقريزي[1] «ثم كان يوم الفجار الثاني وسببه أن الأوس طلبت من قريظة والنضير أن يحالفوهم على الخزرج فأرسلت الخزرج تؤذن قريظة والنضير فقالوا لهم أنا لا نريد محالفة الأوس فبعثوا اليهم: أدوا الينا رهنا على الوفاء[2] فأرسلت اليهود اليهم بأربعين غلاما من قريظة والنضير فبلغ يهود أن يزيد بن فسحم تغنى وهو سكران بشعر يعيرهم فيه فغضبوا لذلك وحالفوا الأوس على الخزرج، واقتتلوا قتالا شديدا وسمي ذلك الفجار الثاني لقتل الغلمان». ويقال بل قال عمرو بن النعمان البياضي الخزرجي لبني بياضة: ان أباكم أنزلكم منازل السوء، والله لا يمس رأسي ماء حتى انزلكم منازل قريظة والنضير واقتل رهنهم، وكانت منازل قريظة والنضير خير البقاع ثم أرسل الى قريظة والنضير اما أن تخلوا بيننا وبين دياركم واما أن نقتل الرهن فهموا بأن يخرجوا من ديارهم. فقال لهم كعب بن أسد القرظي: يا قوم امنعوا دياركم وخلوا الغلمان تقتل فما هي الا ليلة يصيب فيها أحدكم امرأته فتلد له مثل أحدهم، فأرسلوا الى الخزرج بأنا لا ننتقل عن ديارنا، فغدا عمرو بن النعمان على رهنهم فقتلهم، وخالف عبدالله بن أبي بن سلول، وقال: هذا بغي واثم ونهاه عن قتلهم وعن قتال الأوس، وقال له: كأني بك وقد حملت قتيلا في عباءة يحملك اربعة رجال، فلم يقبل قوله. فلم يقتل ابن أبي ولا من أطاعه

---

(١) الخبر عن البشر جـ٢ م٢ ص٢٠٨.

(٢) هذا شبيه بما طلبته قريش من اليهود يوم الخندق. أنظر ابن هشام.

أحدا ممن تحت أيديهم من الغلمان[1]، وأطلقوهم فحالفت حينئذ قريظة والنضير الأوس على الخزرج، واقتتلوا.

حرب بعاث:

ونجد أيضا ذكرا لاشتراك اليهود مرة أخرى في حرب بعاث ويبدو أنها كانت بعد الفجار الثاني بوقت قصير. يقول المقريزي[2] «ثم كان يوم بعاث، وهو مال من أموال قريظة، بضم الباء الموحدة وفتح العين المهملة، وقيل بعاث بعين معجمة وسببه أن قريظة والنضير جددوا العهد مع الأوس على المؤازرة والتناصر، وجددوا في أمرهم وادخلوا معهم عدة قبائل من اليهود، فجعمت الخزرج وحشدت وراسلت حلفاءها من أشجع وجهينة، فأشجع من غطفان وجهينة من قضاعة فراسلت الأوس حلفاءها من مزينة وهم من أحياء طابخة ابن الياس، ومن يهود قريظة والنضير ومكثوا أربعين يوماً يتجهـزون للقتـال ثم التقوا ببعاث، وعلى الأوس حضير الكتائب بن سماك بن عتيك بن أمرئ القيس بن زيد بن عبد الاشهل، وعلى الخزرج عمرو بن النعمان بن خلدة بن أمية بن عامر بن بياضة البياضي، وتخلف عبدالله بن أبي فيمن تبعه من الخزرج، وتخلفت بنو حارثة عن الأوس، فكانت وقائع شنيعة صبروا فيها جميعا ثم انهزم الأوس نحو العريض فنزل ضد ذلك حضير عن فرسه وطعن قدمه بسنان رمحه وصاح واعقراه كعقر الجمل، والله لا أعود حتى أقتل، فان شئتم يا معشر الأوس أن تسلموني فافعلوا، فعطفوا عليه وقاتل عنه غلامان من بني عبد الأشهل هما محمود ويزيد ابنا حليفة حتى قتلا وأقبل سهم لا يدرى من رمى به فأصاب عمرو بن النعمان البياضي رئيس الخزرج فوضع في عباءة وحمله أربعة ومروا به على عبدالله بن أبي وهو راكب يتجسس الأخبار فقال لما رآه: حق والله وبال البغي، وانهزمت الخزرج ووضعت الأوس فيهم

---

(١) لعل هذا مما جعل أهل المدينة يتجهون الى تتويج ابن أبي ملكا عليهم.

(٢) الخبر عن البشر. جـ٢ م٢ ص٢١٠.

السلاح، فصاح صائح يا معشر الأوس أحسنوا ولا تهلكوا اخوانكم فجوارهم خير من جوار الثعالب[1]. فكفوا عند ذلك عنهم ولم يسلبوهم وانما سلبهم قريظة والنضير. وحملت الأوس حضيراً فمات.

وأحرقت الأوس دور الخزرج ونخيلهم فأجار سعد بن معاذ الأشهلي أموال بني سلمة ونخيلهم ودورهم جزاء بما فعل الرعل يوم الفجار الأول. وأسر يومئذ الزبير بن باطا ثابت بن قيس بن شماس الخزرجي فجز ناصيته وأطلقه فكانت له على ثابت يد كافأه عليها في الاسلام يوم بني قريظة. فكان يوم بعاث آخر حروب الأوس والخزرج بعد ما أقامت الحرب بينهم مائة وعشرين سنة[2] » ا ، هـ .

المسرح قبيل الاسلام:

ومما تقدم يبرز لنا على هذا المسرح معسكران أحدهما عربي والآخر يهودي تربط بين أطرافهما أنماط من الحلف ولكنها لا تخفي ما بينهما من عداء وتربص، فأما المعسكر العربي فقد مزقته الحروب بين عشائره حتى أقلقه على مصيره فصار يتمنى لو يجد من هذه الحال مخرجا، وأما المعسكر اليهودي فقد أطمعته هذه الحال وأصبح يرى أنه على أبواب استرداد ما افتقد من عزه ومنعة متى وجد القائد الذي يلم شعثه ويوحد بين بنيه، وهذا شأن بني اسرائيل كلما اشتدت الوطأة عليهم أو أحسوا في عدوهم ضعفا[3]. وخير ما يمثل الموقف بين هذين المعسكرين ما رواه ابن اسحق:

قال ابن اسحاق: وحدثني عاصم بن عمر بن قتاده، عن رجال من قومه قالوا: ان مما دعانا الى الاسلام، مع رحمة الله تعالى وهداه لنا، لما كنا نسمع من رجال يهود، وكنا أهل شرك أصحاب اوثان، وكانوا أهل كتاب،

---

(١) كلمة الثعالب لا بد أنها تشير هنا الى اليهود الذين يرون أنهم كانوا يتربصون بهم.

(٢) الخبر عن البشر جـ٢ مجلد ٢ من المخطوطة ص ٢١١.

(٣) Massish في The Standard Jewish Encyclopedia p. 1308 9 .

عندهم علم ليس لنا، وكانت لا تزال بيننا وبينهم شرور، فاذا نلنا منهم بعض ما يكرهون قالوا لنا: انه (قد) تقارب زمان نبي يبعث الآن. نقتلكم معه قتل عاد وارم، فكنا كثيراً ما نسمع ذلك منهم[١].

وفي هذا الجو المشوب بالقلق والأمل جاء الرسول برسالة الاسلام فاتخذ الأوس والخزرج منه موقفاً، واتخذ اليهود موقفا آخر. وسيكون موقف اليهود هو مدار بحثنا في هذه الرسالة.

مصادر البحث:

ونود أن نشير قبل أن نستطرد في البحث بعد هذا التمهيد، أن المصادر العربية الاسلامية هي المصادر الوحيدة التي تضمنت أخبار اليهود في حقبة صدر الاسلام هذه، ودونت ما حدث فيها بين اليهود والمسلمين من أحداث وأنه ليست هنالك أي مصادر أخرى قامت بتدوين أحداث هذه الفترة الا ما نقله المستشرقون من كتب السيرة والتاريخ الاسلامي وترجموه، أو ما الفه بعضهم من بحوث تتصل بهذا الموضوع واعترفوا فيها أن مصادرهم هي المصادر العربية الاسلامية[٢]. وقد أثار بعضهم في تلك البحوث آراء نرى في بعضها غلوا وفي بعضها أخطاء ربما يكون قد أوقعهم فيها العجز عن فهم معنى النصوص العربية[٣]. وسنشير الى ما نرى أنه جدير بالاشارة أو المناقشة من هذه البحوث في أثناء هذا البحث، بيد أنا سنعتمد على المصادر الاساسية، القرآن، وكتب السيرة والحديث والتاريخ الاسلامي والأدب العربي ما وسعنا الاعتماد اذ أنها المعين الذي ينهل منه كل الباحثين في هذا الموضوع.

---

(١) ابن هشام م١ ص٢١١.

(٢) أنظر Goetein وولفنسن، وWatt والـ Jewish Encyclopedia.

(٣) ومن ذلك ما أورده ولفنسون. - ص١١١. ويلوح أن اليهود كانوا ينظرون بفارغ الصبر قدوم النبي الى يثرب وكانوا يعتقدون أنه في مصلحتهم فقد نادى فيهم أول رجل منهم رأى النبي في يثرب بأعلى صوته «هذا جدكم قد جاء» وقد وهم ولفنسون وحسب أن بني قيلة اسم لليهود أو لقبيلة منهم فاستنتج هذا الاستنتاج اذ أن الصحيح هو أن بني قيلة هم الأوس والخزرج وأن قيلة هي جدتهم.

من البعثة الى الهجرة

تجارة قريش واليهود

اتصال الحركة التجارية بين مكة والشام أدى الى نشوء علاقات تجارية بين قريش ويهود المدينة وسائر أهلها من الأوس والخزرج، والراجح عندي أن هذه العلاقات التجارية هي التي جعلت قريشا ترفض الدخول في حروب الأوس والخزرج[١] حفاظا على مصالحها وعلى أمن قوافلها التي تمر بالمدينة. ولعل انشغال الأوس والخزرج بتلك الحروب قد أتاح لليهود فرصا أوسع للاستفادة من تلك الحركة والاتجار مع القوافل التي كانت تقودها قريش، وأرجح أن ذلك قد أدى الى اتصال أسباب المعرفة بين تجار قريش وزعمائهم وبين العشائر اليهودية في المدينة وقادتها. ولا شك أن هذه الرحلات والعلاقات التجارية قد أكسبت قريشاً كثيراً من المعرفة بأحوال اليهود وعقائدهم وكتبهم المقدسة.

---

(١) امتاع الأسماع ص ٢٢ ـ ثم قدم أبو الحيسر، وقيل بشر بن رافع، مكة في فتية من قومه بني عبد الأشهل يطلبون الحلف من قريش على قومهم من الخزرج، فأتاهم رسول الله ﷺ ودعاهم الى الاسلام فقال، منهم اياس بن معاذ وكان شاباً حدثا ـ ياقوم، هذا والله خير مما جئنا له. فضرب ابو الحيسر وجهه وانتهره فسكت. وقام رسول الله ﷺ وانصرف القوم الى المدينة، ولم يتم لهم حلف».

التوراة وأبناء قريش

بل انا لنجد بين أبناء قريش من التمسوا الهداية في التوازة والانجيل مثل ورقة بن نوفل الذي قال عنه ابن اسحق « وكان ورقة قد تنصر وقرأ الكتب وسمع من أهل التوراة والانجيل » وقد ذهبت اليه خديجة تستشيره حين بدأ نزول الوحي على الرسول فطمأنها قائلا : « والذي نفس ورقة بيده لئن كنت صدقتيني يا خديجة، لقد جاءه الناموس الأكبر، الذي كان يأتي موسى »[1].

كما نجد آخرين من أبناء قريش قد التمسوا الهداية في دين اليهود ولكنهم لم يطمئنوا اليه كما لم يطمئنوا الى غيره من الأديان ومن هؤلاء زيد بن عمرو ابن نفيل، الذي قال عنه ابن اسحق[2] « وأما زيد بن عمرو بن نفيل فوقف فلم يدخل في يهودية ولا نصرانية، وفارق دين قومه، فاعتزل الأوثان، والميتة، والدم، والذبائح التي تذبح على الأوثان، ونهى عن مقتل الموءودة، وقال - أعبد رب ابراهيم، وبادى قومه بعيب ماهم فيه ». قال ابن اسحق[3] - « وحدثني هشام بن عروة عن أبيه، عن أمه اسماء بنت أبي بكر رضي الله عنهما قالت - لقد رأيت زيد بن عمر بن نفيل شيخاً كبيراً مسنداً ظهره الى الكعبة، وهو يقول - يا معشر قريش، والذي نفس زيد بن عمرو بيده ما أصبح منكم أحد على دين ابراهيم غيري، ثم يقول - اللهم لو أني أعلم أي الوجوه احب اليك عبدتك، ولكن لا أعلمه، ثم يسجد على راحته ».

الحنفاء واليهودية

وأحسب أن زيداً هذا وأمثاله من الحنفاء انما ترعرعت فيهم هذه الملكة الناقدة للأديان من خلال تلك الرحلات التجارية التي أدت بهم الى الاتصال والاختلاط والجدال مع كثير من أهل الأديان الأخرى المنتشرة في جزيرة

---

(١) وانظر السمهودي ص١٥٣ وابن هشام م١ ص٢٣٨.

(٢) ابن هشام م٢ ص٢٢٤.

(٣) المصدر نفسه ص٢٢٥.

العرب، فرفضوا تعدد الوثنية، وتثليث النصرانية، واهتدوا الى التوحيد فاتفقوا بذلك مع اليهودية، ولكن يبدو أنهم أنكروا فيها أشياء ربما كان أهمها مسألة ارتباط العقيدة بالعنصر عند اليهود ووضعهم للمؤمنين بديانتهم من غير بني جنسهم في المرتبة التالية وهذا أمر لم تستسغه ضمائر الحنفاء من أمثال زيد، ولم تقبله عقولهم، ولا يتفق مع سجيتهم وطبائعهم العربية، ولا تهيئهم له نشأتهم في قبيلة قريش المنوط بها سدانة الكعبة والمعترف لها بالعز والشرف بين سائر قبائل أهل الحجاز.

عرافة خيبر

وثمة أحداث أخرى تدل على وجود الصلة بين قريش واليهود من ذلك خبر العرافة التي ذهب اليها عبد المطلب في خيبر ليستفتيها في أمر نذره ذبح ابنه عبدالله، فذهبوا إليها في خيبر وافتاهم بضرب القداح[1] ولقد كانت خيبر كما نعلم معقلا من معاقل اليهود وسوقا من الاسواق الكبيرة في جزيرة العرب[2]، ومنها أن قريشا استعانت برجل يهودي ليقرأ لهم كتابا بالسريانية وجدوه في الكعبة[3]، ومنها خبر بحيرا الراهب الذي رأى النبي في صباه حينما صحبه عمه أبو طالب الى الشام فبشره بحيرا بأمره وحذره عليه من اليهود[4].

وقد تكون بعض هذه الاخبار قد صنعت بأخرة أو دخلها عنصر الاسطورة ولكن حتى جانب الصنعة والاسطورة انما بني على اساس من الحقيقة وهو أنه كانت ثمة علاقة قائمة بين قريش واليهود هي التي أباحت للقصة أن تصنع وللأسطورة أن تروج وأحسب أن العلاقة التي تبيح ذلك هي علاقة

---

(١) ابن هشام م١ ص١٥١.

(٢) معجم البلدان لياقوت جـ٣ ص٤٩٥ - ٤٩٧ الطبعة الاولى - الخانجي مطبعة دار السعادة. أنظر كلمة خيبر. وانظر فصل اسواق العرب في الجاهلية في المحبر لابن حبيب طبعة حيدر أباد.

(٣) ابن هشام جـ١ ص١٩٦.

(٤) ابن هشام م١ ص١٨٢ - ١٨٣.

هذه القوافل التجارية التي تذهب وتجيء بين مكة والشام مرة على الاقل في كل عام.

اللجوء الى اليهود

وفي ضوء ما تقدم ليس بغريب أن تستغل قريش علاقاتها التجارية باليهود فتلتمس عندهم الحجج آملة بذلك أن تفحم الرسول، فأرسلت النضر بن الحرث «وبعثوا معه عقبة بن أبي معيط الى أحبار يهود بالمدينة، وقالوا لهما سلاهم عن محمد، وصفا لهم صفته، واخبراهم بقوله، فإنهم أهل الكتاب الأول، وعندهم علم ليس عندنا من علم الأنبياء، فخرجا حتى قدما المدينة فسألا أحبار يهود عن رسول الله ﷺ، ووصفا لهم أمره، وأخبراهم ببعض قوله، وقالا لهم - إنكم أهل التوراة وقد جئناكم لتخبرونا عن صاحبنا هذا، فقالت لهما أحبار يهود - سلوه عن ثلاث نأمركم بهن، فإن أخبركم بهن فهو نبي مرسل، وان لم يفعل فالرجل منقول فروا فيه رأيكم. سلوه عن فتية ذهبوا في الدهر الأول ما كان أمرهم؟ فأنه قد كان لهم حديث عجب أو سلوه عن رجل طواف قد بلغ مشارق الأرض ومغاربها ما كان نبؤه؟ وسلوه عن الروح ما هي؟ فاذا أخبركم بذلك فاتبعوه فإنه نبي، وإن لم يفعل، فهو رجل منقول فروا فيه رأيكم»[1].

ونحن نعلم أن النضر بن الحرث كان من كبار القائمين بمعارضة الرسول قال فيه ابن اسحق - «وكان النضر بن الحرث من شياطين قريش، وممن كان يؤذي النبي، وينصب له العداوة، وكان قد قدم الحيرة وتعلم بها أحاديث ملوك الفرس، وأحاديث رستم واسبنديار، فكان اذا جلس رسول الله ﷺ مجلساً فذكر فيه بالله وحذر قومه ما أصاب من قبلهم من الأمم من نقمة الله، خلفه في مجلسه اذا قام ثم قال - أنا والله يا معشر قريش، أحسن منه، فهلم

(١) ابن هشام - م ١ ص ٣٠٠ - ٣٠١.

الي، فأنا أحدثكم أحسن من حديثه، ثم يحدثهم عن ملوك فارس ورستم واسبنديار ثم يقول ـ بماذا محمد أحسن حديثاً مني[1] ؟

ولربما كان النضر قد اختير لهذه المهمة لتمتعه بملكة قصصية تمكنه من استيعاب ما يرويه عليه أحبار يهود في المدينة فيقصه على قريش في مجالسها وأنديتها ويجادل به النبي والمسلمين. أما عقبة فقد اشتهر بعداوته للرسول ومحاربته لدعوته وربما كانت له علاقات تجارية وصداقات في يهود المدينة أراد أن يستعين بها على حرب النبي، والذي نلاحظه من نسبه الذي ذكرناه أنه من بني أمية وهم من أشهر تجار قريش[2].

وقد كانت تلك الرحلة سببا في أزمة نفسية حادة ضاق بها الرسول والمسلمون خمسة عشر يوما[3] وذلك أن قريشا حينما سألت الرسول بما قالته لوفدها أحبار يهود رد عليهم بأنه سيجيبهم على تلك الأسئلة غدا ولم يستثن، فانقطع عنه الوحي طوال تلك المدة وفرحت قريش بذلك فرحا عظيماً ولعلها ظنت أن اليهود قد استطاعوا أن يفحموا الرسول ويعجزوه عن الرد. ثم تنزل القرآن بعد ذلك بسورة الكهف[4]، تحمل الرد على اسئلتهم وتفصل القصص الذي سألوه.

سورة الكهف

وليس في سورة الكهف ذكر صريح لليهود ولكن فيها بعض الاشارات التي تفهم من سياق الآيات ومما أحاط بنزول السورة من ظروف مثل قوله

---

(١) ابن هشام - م ١ ص ٣٠٠.

(٢) ويروى أن عقبة هو الظالم الذي ذكر في الآيات ٢٧ و٢٨ و٢٩ من سورة الفرقان وهي ﴿ويوم يعض الظالم على يديه يقول يا ليتني اتخذت مع الرسول سبيلا. يا ويلتا ليتني لم اتخذ فلانا خليلا. لقد أضلني عن الذكر بعد إذ جاءني، وكان الشيطان للانسان خذولا﴾ أنظر تفسير الآيات في جـ ١٩ من تفسير الطبري ص ٥ و ٦ طبعة بولاق.

(٣) ابن هشام م ١ ص ٣٠١ - ٣٠٢.

(٤) القرآن السورة رقم (١٨).

تعالى في عدة أهل الكهف، ﴿سيقولون ثلاثة رابعهم كلبهم، ويقولون خمسة سادسهم كلبهم رجما بالغيب، ويقولون سبعة وثامنهم كلبهم قل ربي أعلم بعدتهم ما يعلمهم الا قليل، فلا تمار فيهم الا مراء ظاهراً، ولا تستفت فيهم منهم أحداً[1]﴾ . وقد فهم اليهود أنه قد عرض بهم فيما نزل من القرآن فجادلوا الرسول في ذلك حينما انتقل الى المدينة، قال ابن اسحق[2] . وحدثت عن ابن عباس، أنه قال ـ لما قدم رسول الله ﷺ المدينة ـ قالت أحبار يهود، يا محمد أرأيت قولك ـ ﴿وما أوتيتم من العلم إلا قليلا﴾[3] «ايانا تريد، أم قومك؟ قال ـ كلا، قالوا ـ فانك تتلو فيما جاءك ـ انا قد أوتينا التوراة فيها بيان كل شيء. فقال رسول الله ﷺ ـ انها في علم الله قليل، وعندكم في ذلك ما يكفيكم لو أقمتموه».

وهكذا نجد أن اليهود كانوا يشتركون في مجادلة الرسول مع قريش عن طريق هذه البعوث التي توفدها قريش من أمثال عقبة والنضر أو عن طريق محادثاتهم مع من يقدمون عليهم في القوافل التجارية التي تمر بهم في طريقها الى الشام ولكنهم لم يكونوا يهتمون بهذه الدعوة الجديدة الاهتمام كله لبعدها عنهم ولأنها لم يكن لها حتى ذلك الوقت أي أثر على حياتهم في المدينة أو على علاقاتهم التجارية بقريش. وانما كان جل ما يطمعون فيه أن يحتفظوا بعلاقات طيبة مع مكة التي آثرت ألا تدخل فيما كان يثور في المدينة من نزاع وعراك[4] .

استمرار الجدال

بيد أن الجدال لم ينقطع بين مكة والمدينة في أمر الرسول فقد كانت

(١) سورة الكهف الآية ٢٢ .

(٢) ابن هشام م١ ص٣٠٨.

(٣) الاسراء ١٧ مكية الآية ٨٥ . نلاحظ أن الرد على السؤال عن الروح أنه جاء في سورة الاسراء وليس في سورة الكهف.

(٤) طبقات ابن سعد جـ ١ ص ١٥٠ .

المواسم تأتي بالناس وفيهم من أهل المدينة من درسوا كتب اليهود فكان النبي يتصدى لهم يدعوهم الى الاسلام كما في قصة سويد بن الصامت الذي كان يسميه قومه الكامل لجلده وشعره وشرفه ونسبه[1]، فقد جاء سويد هذا إلى مكة في الموسم «فتصدى له رسول الله ﷺ حين سمع به، فدعاه الى الله والى الاسلام فقال له سويد - فلعل الذي معك مثل الذي معي، فقال له رسول الله ﷺ - وما الذي معك؟ قال مجلة لقمان[2] - يعني حكمة لقمان - فقال له رسول الله ﷺ - اعرضها علي، فعرضها عليه فقال له - ان هذا الكلام حسن، والذي معي أفضل من هذا، قرآن أنزله الله تعالى علي، هو هدى ونور، فتلا عليه رسول الله ﷺ القرآن، ودعاه الى الاسلام، فلم يبعد منه، وقال - ان هذا القول حسن. ثم انصرف عنه، فقدم المدينة على قومه، فلم يلبث ان قتلته الخزرج فان كان رجال من قومه ليقولون إنا لنراه قد قتل وهو مسلم وكان قتله يوم بعاث[3]».

أثر اليهود في المدينة

وسويد هذا يدل على مدى أثر اتساع ثقافة بعض أهل المدينة الذين يبدو أن صلتهم باليهود وكتبهم قد دفعتهم الى التماس الحكمة في شتى مظانها حتى يستطيعوا أن يقفوا معهم على قدم المساواة.

ونرى أنه قد كان لوجود اليهود في المدينة أثر كبير في نشر فكرة التوحيد وتهيئة أهلها لقبول الاسلام، فقد جاء في طبقات ابن سعد[4]

---

(١) ابن هشام م١ ص٤٢٦.

(٢) في م٢ جـ٦ من مخطوطة الخبر في البشر - قال وهب بن منبه «قرأت من حكمة لقمان أرجح من عشرة آلاف باب» انظر مادة Lukman في الـ Encyc. of Islam Vol 3 p. 35 ومادة Wahb b. Munabih Vol. IV p. 1084.

(٣) ابن هشام م١ ص٤٢٧.

(٤) طبقات ابن سعد ج١ - ق١ ص١٤٦.

«وذكروا ان أول من أسلم من الانصار أسعد بن زرارة وذكوان بن عبد القيس خرجا الى مكة يتنافران الى عتبة بن ربيعة، فقال لهما قد شغلنا هذا المصلي عن كل شيء يزعم انه رسول الله، قال وكان اسعد بن زرارة وأبو الهيثم بن التيهان يتكلمان بالتوحيد بيثرب فقال ذكوان بن عبد القيس لأسعد ابن زرارة حين سمع كلام عتبة دونك هذا دينك، فقاما الى رسول الله صلعم فعرض عليهما الاسلام فأسلما ثم رجعا الى المدينة فلقي أسعد أبا الهيثم بن التيهان فأخبره باسلامه وذكر له قول رسول الله صلعم وما دعا اليه فقال أبو الهيثم فأنا أشهد معك».

هذا وأول اشارة صريحة في الأخبار لجماعة اليهود بالمدينة نجدها في مقابلة الرسول لأهل العقبة[١]، وهي تدلنا أن الرسول كان على علم بأحوال المدينة وعلاقة اليهود بأهلها، وقد كانت مقابلة العقبة هذه عقب حرب بعاث، اي بعد مقابلته لسويد بن الصامت ولقياه لجماعة أبي الحيسر[٢] وبعد نزول سورة الكهف وربما كان ذلك بعد مقابلة سرية سابقة مع أسعد بن زارة وأبي الهيثم ابن التيهان، ولا شك أن الموقف قد تغير في المدينة ولا شك بعد حرب بعاث تغيراً كبيراً اذ أخذ الأوس والخزرج يخشون خطر هذه الفرقة التي أوشكت أن تقضي عليهم وأن تمكن لليهود منهم. ولعل تفاعل هذه الأحداث مع ما عرفوه من قبل من اليهود من أن نبياً سيبعث هو الذي جعلهم يهرعون الى تلبية نداء الرسول بعد بعاث.

قال ابن اسحق[٣] «فلما أراد الله عز وجل اظهار دينه واعزاز نبيه ﷺ،

---

(١) استعملنا كلمة مقابلة العقبة للتفريق بينها وبين الاجتماعين الآخرين اللذين قد تمّا بعد ذلك بين الرسول وبين المسلمين من أهل المدينة وهما اللذان يشير اليهما أهل السيرة بالعقبة الاولى والعقبة الثانية أو بيعة العقبة الاولى وبيعة العقبة الثانية لأنه قد تمت بيعتان في هاتين المقابلتين ولم تكن هناك بيعة في المقابلة السابقة لهما.

(٢) أنظر هامش (١) في الصفحة ٣٠ من هذا البحث.

(٣) ابن هشام م ١ ص٤٢٨ - ٤٢٩.

وانجاز موعده له، خرج رسول الله صلعم في الموسم الذي لقيه فيه النفر من الأنصار، فعرض نفسه على قبائل العرب، كما كان يصنع في كل موسم، فبينما هو عند العقبة، لقي رهطا من الخزرج أراد الله بهم خيراً ».

قال ابن اسحق ـ « فحدثني عاصم بن عمر بن قتادة، عن أشياخ من قومه. قالوا ـ لما لقيهم رسول الله ﷺ قال لهم أمن موالي يهود؟ قالوا نعم، قال ـ أفلا تجلسون أكلمكم؟ قالوا ـ بلى. فجلسوا معه، فدعاهم الى الله عز وجل، وعرض عليهم الاسلام وتلا عليهم القرآن. قال ـ وكان مما صنع الله بهم في الاسلام ان يهود كانوا معهم في بلادهم، وكانوا أهل كتاب وعلم، وكانوا هم أهل شرك وأصحاب أوثان، وكانوا قد غزوهم ببلادهم، فكانوا اذا كان بينهم شيء قالوا لهم ـ ان نبياً مبعوث الان، قد أظل زمانه، نتبعه فنقتلكم معه قتل عاد وارم. فلما كلم رسول الله ﷺ أولئك النفر، ودعاهم الى الله، قال بعضهم لبعض ـ يا قوم، تعلموا والله انه النبي الذي توعدكم به يهود، فلا تسبقنكم اليه، فأجابوه فيما دعاهم اليه، بأن صدقوه، وقبلوا منه ما عرض عليهم من الاسلام، وقالوا ـ انا قد تركنا قومنا، ولا قوم بينهم من العداوة والشر ما بينهم، فعسى أن يجمعهم الله بك، فسنقدم عليهم، فندعوهم الى أمرك، وتعرض عليهم الذي اجبناك اليه من هذا الدين، فإن يجمعهم الله عليه، فلا رجل أعز منك. ثم انصرفوا عن رسول الله ﷺ راجعين الى بلادهم وقد آمنوا وصدقوا.

اليهود وأصحاب العقبة

ونحن لا نعلم موقف اليهود في المدينة من أصحاب العقبة هؤلاء، ويبدو أنهم لم يكترثوا لهم لأنهم لم يكونوا من الزعماء والقادة وانما كانوا من الشباب والفتيان الذين لا يؤبه لشأنهم خاصة وان عددهم في خلال عالم لم يزد كثيراً عن اثني عشر شخصاً وهم عدة الذين قدموا في الموسم المقبل على الرسول وبايعوه بيعة النساء وسميت بيعتهم تلك بيعة العقبة الاولى. وربما كان للسرية

التي التزموها أثر في عدم اهتمام اليهود بهم أو في تقليلهم من شأنهم.

بين البيعتين

ولكن يبدو أن اهتمام اليهود بدأ يزداد ازدياداً ملحوظاً بعد بيعة العقبة الاولى، اذ ان عدد المسلمين أخذ يزداد مما حدا بهم أن يبعثوا الى الرسول يطلبون منه ارسال أحد أصحابه[١] يقرئهم القرآن ويفقههم في الدين فأرسل الرسول اليهم مصعب بن عمير[٢]. وأرجح أن مصعبا حينما ذهب الى المدينة اهتم بتركيز الدعوة في الأوس والخزرج باعتبارهم قوم المسلمين وعشيرتهم، ولكننا لا نستبعد انه قد تكون شجرت بينه وبين بعض اليهود مناقشات حول الاسلام واليهودية، وربما كانت تلك المناقشات من أسباب اتجاه البراء بن معرور في صلاته إلى الكعبة ومحاولته التحول من بيت المقدس قبلة اليهود حتى رده الرسول قائلا له « كنت على قبلة لو صبرت عليها[٣] ».

بعد البيعة الثانية

وفي بيعة العقبة الثانية نجد ذكراً صريحاً لمسألة أحلاف الأوس والخزرج مع اليهود في حديث أبي الهيثم بن التيهان مع الرسول أثناء أخذ البيعة. ففي رواية ابن اسحق عن كعب بن مالك قال[٤] ـ فتكلم رسول الله ﷺ فتلا القرآن، ودعا اليه ورغب في الاسلام، ثم قال ـ أبايعكم على أن تمنعوني مما تمنعون منه

---

(١) نلاحظ ان مصعب بن عمير كان ممن هاجروا الى ارض الحبشة وربما كان هذا من أسباب اختياره لأن الحبشة كانوا أهل كتاب ويهود يثرب أهل كتاب كذلك فهو اذا قادر على معرفة أهل الكتاب ومجادلتهم كما هو قادر على منع الشقاق بين مسلمي الأوس والخزرج. أنظر ذكر الهجرة الى أرض الحبشة في عيون الأثر ص١١٥ - ١٢١. وفي ابن هشام م١ ص٣٢٢ - ٣٤٠.

(٢) انظر طبقات ابن سعد جـ١ ق١ ص١٤٨.

(٣) ابن هشام م١ ص٤٤٠ ـ أنظر قصة البراء هذه كما رواها ابن هشام م١ ص٤٣٩ - ٤٤٠.

(٤) ابن هشام م١ ص٤٤٢.

نساءكم وأبناءكم. قال ـ فأخذ البراء بن معرور بيده ثم قال ـ نعم والذي بعثك بالحق نبيا، لنمنعنك مما نمنع منه أزرنا، فبايعنا يا رسول الله، فنحن والله أبناء الحروب، وأهل الحلقة، ورثناها كابرا عن كابر. قال فاعترض القول والبراء يكلم رسول الله ﷺ أبو الهيثم بن التيهان، فقال ـ يا رسول الله، ان بيننا وبين الرجال حبالا، وانا قاطعوها ـ يعني اليهود ـ فهل عسيت ان نحن فعلنا ذلك ثم اظهرك الله، ان ترجع الى قومك وتدعنا، قال فتبسم رسول الله ﷺ، ثم قال، بل الدم الدم، والهدم الهدم[1]، أحارب من حاربتم، وأسالم من سالمتم».

ونحن لا نعلم تفصيل ما حدث في المدينة بعد هذه البيعة وعودة أصحابها الذين ربما لا بد أنهم قد شغلوا بدعوة قومهم وزعمائهم الى الاسلام واهتموا بمحاربة الوثنية بينهم كما في قصة صنم عمرو بن الجموح[2] كما اهتموا بايواء المهاجرين من مكة، اما اليهود فيبدو أنهم أخذوا ينتبهون الى ما يدور في احياء الأوس والخزرج، وأخذت الأحداث تمر بسرعة مذهلة لم تمكنهم من اتخاذ موقف موحد، وجملة ما يمكن أن يقال عن موقفهم إنه موقف الاهتمام والقلق الشديد.

هذا وربما كان بعضهم قد جذل لأنه قدر أن الأوس والخزرج قد دخلوا

---

(١) قال ابن هشام ـ ويقال الهدم الهدم يعني الحرمة، أي ذمتي ذمتكم، وحرمتي حرمتكم. قال السهيلي ـ جـ١ ص٢٧٦ وذكر قول النبي ﷺ للمبايعين له ـ بل الدم الدم والهدم والهدم وقال ابن هشام الهدف بفتح الدال. قال ابن قتيبة ـ كانت العرب تقول عند عقد الحلف والجوار دمي دمك وهدمي هدمك أي ما هدمته من الدماء هدمته أنا، ويقال أيضاً بل اللدم اللدم والهدم الهدم وأنشد ثم الحقي بهدمي ولدمي. فاللدم جمع لادم وهم أهله الذين يلتدمون عليه اذا مات، وهو من لدمت صدره اذا ضربته. والهدم قال ابن هشام الحومة وانما كني عن حرمة الرجل وأهله بالهدم لأنهم كانوا أهل نجعة وارتحال ولهم بيوت يستخفونهم طعنهم فكلما طعنوا هدموها، والهدم بمعنى المهدوم كالقبض بمعنى المقبوض ثم جعلوا الهدم وهو البيت المهدوم عبارة عما حوى، ثم قال هدمي هدمك أي رحلتي مع رحلتك لا أظعن وأدعك وأنشد يعقوب. كأنها هدم في الجفر منقاض.

(٢) ابن هشام م١ ص٤٥٢ ـ ٤٥٣.

في عداء قريش بهذا الصنيع، وأن ذلك سيحول المعاملة التجارية بين قريش والمدينة لمصلحة اليهود اذ لا بد أنهم سمعوا بما حدث لسعد بن عبادة في مكة من ضرب واهانة[1] وهو سيد من سادات الخزرج ومن الذين كانوا يجيرون لقريش تجارها بالمدينة. بل وأرى أن أبا جهل بن هشام قد اتصل ببعض زعماء اليهود وقام بتحريضهم حين جاء الى المدينة ليعمل على استعادة عياش ابن أبي ربيعة[2].

ونستطيع أن نقول ان اليهود في المدينة كانوا ينقسمون حتى هذا الوقت الى فئات ثلاث ـ فمنهم المترقبون ومنهم المضمرون العداء للرسول ومنهم المتبرمون بما وصلت اليه حال اليهود من فساد فرأوا أن الخلاص في الايمان بالدين الجديد وهؤلاء أقل هذه الفئات الثلاث.

أما الفئة الاولى فيمثلها ذلك اليهودي الذي كان أول من رأى الرسول وهو يدخل المدينة. قال ابن اسحق[3] ـ فحدثني محمد بن جعفر بن الزبير عن عبد الرحمن بن عويمر بن ساعدة، قال ـ حدثني رجال من قومي من اصحاب رسول الله ﷺ، قالوا ـ لما سمعنا بمخرج رسول الله ﷺ من مكة، وتوكفنا قدومه، كنا نخرج اذا صلينا الصبح، الى ظاهر حرتنا ننتظر رسول الله ﷺ فوالله ما نبرح حتى تغلبنا الشمس على الظلال، فاذا لم نجد ظلا دخلنا، وذلك في ايام حارة حتى اذا كان اليوم الذي قدم فيه رسول الله ﷺ، جلسنا كما كنا نجلس، حتى اذا لم يبق ظل دخلنا بيوتنا، وقدم رسول الله ﷺ حين دخلنا البيوت، فكان أول من رآه رجل من اليهود[4]، وقد رأى ما كنا

---

(١) ابن هشام م١ ص٤٤٩ ـ ٤٥١.

(٢) ابن هشام م١ ص٤٧٤ ـ ٤٧٥.

(٣) ابن هشام م١ ص٤٩٢.

(٤) ربما يكون عمل هذا اليهودي عملا فرديا ولكن ربما تكون قد أرسلته جماعة من اليهود ليستطلع لهم الخبر. وهو على أي حال يمثل عندي ظاهرة نفسية كانت موجودة في المجتمع اليهودي ازاء حدث كبير يحدث في المدينة هو قدوم الرسول مهاجراً اليها.

نصنع، وأنا ننتظر قدوم رسول الله ﷺ علينا فصرخ بأعلى صوته ـ يا بني قيلة، هذا جدكم قد جاء. قال فخرجنا الى رسول الله ﷺ.

وأما الفئة الثانية فيمثلها الزعماء ممن يخشون على مكانتهم الاجتماعية ومن كانوا يرون ان عداء الرسول ربما قاد اليهم تجارة قريش وساعدهم على المجد والسؤدد أو استئصال الأوس والخزرج. ويمثل هؤلاء موقف حيي بن أخطب قال ابن اسحق[1]: وحدثني عبدالله بن أبي بكر بن محمد بن عمرو بن حزم قال ـ حدثت عن صفية بنت حيي بن أخطب، أنها قالت ـ كنت أحب ولد أبي اليه، والى عمي أبي ياسر، لم ألقهما قط مع ولد لهما الا أخذاني دونه. قالت ـ فلما قدم رسول الله ﷺ المدينة، ونزل قباء، في بني عمرو بن عوف، غدا عليه حيي بن أخطب، وعمي أبو ياسر بن أخطب، مغلسين. قالت ـ فلم يرجعا حتى كانا مع غروب الشمس. قالت ـ فأتيا كالين كسلانين ساقطين يمشيان الهوينى. قالت ـ فهششت اليهما كما كنت أصنع، فوالله ما التفت إلي واحد منهما، مع ما بهما من الغم. قالت ـ وسمعت عمي أبا ياسر وهو يقول، لأبي حيي بن أخطب أهو هو؟ قال نعم والله. قال ـ أتعرفه وتثبته؟ قال نعم، قال ـ فما في نفسك منه؟ قال ـ عداوته والله ما بقيت[2]».

أما الفئة الثالثة فربما كان بعض أفرادها قد اقتنعوا بالدين الجديد بعد مناقشة مع المسلمين الذين قدموا مهاجرين الى المدينة قبل وصول الرسول. ويمكننا أن نعتبر عبدالله بن سلام نموذجا لهذه الفئة القليلة. قال ابن اسحق[3] «وكان من حديث عبدالله بن سلام، كما حدثني بعض أهله عنه وعن اسلامه حين أسلم، وكان حبراً عالماً، قال ـ لما سمعت برسول الله ﷺ عرفت صفته واسمه، وزمانه الذي كنا نتوكف له، فكنت مسراً لذلك صامتا عليه، حتى

---

(١) ابن هشام م١ ص٥١٨ ـ ٥١٩.

(٢) قد يكون هذا الخبر أو جزء منه قد وضع بأخرة ألا أن جملته وهو عداء حيي بن أخطب للرسول من أول قدومه للمدينة حتى آخر رمق من حياة حيي فهي صحيحة.

(٣) ابن هشام م١ ص٥١٦ ـ ٥١٧.

قدم رسول الله ﷺ المدينة، فلما نزل بقباء في بني عمرو بن عوف أقبل رجل حتى أخبر بقدومه، وأنا في رأس نخلة لي أعمل فيها، وعمتي خالدة بنت الحرث تحتي جالسة، فلما سمعت الخبر كبرت، فقالت لي عمتي، حين سمعت تكبيري - خيبك الله، والله لو كنت سمعت بموسى بن عمران قادماً ما زدت. قال - فقلت لها أي عمة هو والله أخو موسى بن عمران وعلى دينه، بعث بما بعث به. قال - فقالت - أي ابن أخي، أهو النبي الذي كنا نخبر أنه يبعث مع نفس الساعة؟ قال - فقلت لها نعم. قال - فقالت - فذاك اذاً. قال - ثم خرجت الى رسول الله ﷺ، فأسلمت، ثم رجعت الى أهل بيتي، فأمرتهم فأسلموا.

قال - أي عبدالله بن سلام - وكتمت إسلامي من يهود، ثم جئت به رسول الله ﷺ، فقلت له - يا رسول الله، ان يهود قوم بهت، واني احب أن تدخلني في بعض بيوتك، وتغيبني عنهم، ثم تسألهم عني حتى يخبروك كيف أنا فيهم، قبل أن يعلموا اسلامي، فإنهم ان علموا به بهتوني وعابوني. قال - فأدخلني رسول الله ﷺ في بعض بيوته، ودخلوا عليه فكلموه وسألوه، ثم قال لهم - أي رجل الحصين بن سلام فيكم؟ قالوا - سيدنا وابن سيدنا، وحبرنا وعالمنا. قال - فلما فرغوا من قولهم خرجت عليهم، فقلت لهم، يا معشر يهود اتقوا الله، واقبلوا ما جاءكم به، فوالله انكم لتعلمون انه لرسول الله، تجدونه مكتوبا عندكم في التوراة باسمه وصفته، فإني أشهد أنه رسول الله، وأومن به وأصدقه وأعرفه، فقالوا - كذبت، ثم وقعوا بي. قال - فقلت لرسول الله ﷺ، ألم أخبرك يا رسول الله أنهم قوم بهت، أهل غدر، وكذب وفجور، قال - فأظهرت اسلامي واسلام أهل بيتي، وأسلمت عمتي خالدة بنت الحرث فحسن اسلامها».

وقصة عبدالله بن سلام هذه تبين لنا مدى العنت الذي كان يلاقيه أي يهودي اقتنع بالدعوة الجديدة وحاول اعتناق الاسلام، ولعل هذا من أسباب

تأجيل اسلام رجل مثل مخيريق[1] وهو لا يقل عن عبدالله بن سلام جرأة وثباتا. كما لعل موقف أمثال هؤلاء من الذين لا يستطيعون الجهر باسلامهم هو أيضاً واحد من الأسباب التي أدت الى الجدال الشديد الحار الذي نجده مسجلا في القرآن بين الرسول واليهود[2]. غير أن الجدال الذي استمر زمنا طويلا، ودخول أفراد من اليهود في الاسلام لم يصرف الرسول عن مقتضيات تنظيم المجتمع الجديد الذي تولى قيادته فكان من أول ما أستهل به عهده في المدينة ان قام بوضع الأسس التشريعية لهذا المجتمع الجديد، فحدد لكل طائفة من طوائفه ما لها من حقوق وما عليها من واجبات.

(١) أنظر قصة اسلام مخيريق في ابن هشام م١ ص٥١٨.
(٢) أنظر مثلا سورة البقرة وآل عمران وهما من أول السور المدنية.

معاهدة المدينة

استهل الرسول عهده في المدينة بكتابة معاهدة. نظم فيها أموال المجتمع الجديد، وحدد طوائفه وشرط لكلي طائفة واشترط عليها. ونص المعاهدة كما برويه ابن اسحق هو[1].

بسم الله الرحمن الرحيم[2]

(١) هذا كتاب من محمد النبي ﷺ، بين المؤمنين والمسلمين من قريش ويثرب ومن تبعهم فلحق بهم وجاهد معهم.

(٢) أنهم أمة واحدة من دون الناس.

(٣) المهاجرون من قريش على ربعتهم يتعاقلون بينهم، وهم يفدون عانيهم بالمعروف والقسط بين المؤمنين.

(٤) وبنو عوف على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى، وكل طائفة تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين.

---

(١) ابن هشام م/١ ص ٥٠١-٥٠٤.

(٢) اتبعنا هنا الترقيم الذي اتبعه الدكتور محمد حميدالله الحيدر آبادي في كتابه مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوي والخلافة الراشدة ص ١٥ وص ٢١ وهو مماثل للترقيم الذي اتبعه غيره من المستشرقين ورغم ان هذا الترقيم غير موجود في أصل المعاهدة الا انا اتبعناه لنتمكن من مناقشة آراء هؤلاء الباحثين في هذه المعاهدة.

(٥) وبنو ساعدة على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى، وكل طائفة منهم تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين.

(٦) وبنو الحرث على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى، وكل طائفة تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين.

(٧) وبنو جشم على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى، وكل طائفة تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين.

(٨) وبنو النجار على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى، وكل طائفة تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين.

(٩) وبنو عمرو بن عوف على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى، وكل طائفة تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين.

(١٠) وبنو النبيت على ربعتهم يتعاقلون معـاقلهم الأولى، وكل طائفة تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين.

(١١) وبنو الأوس على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى، وكل طائفة تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين.

(١٢) وان المؤمنين لا يتركون مفرحاً[1] بينهم أن يعطوه بالمعروف في فداء او عقل.

(١٢ ب) وأن لا يحالف مؤمن مولى مؤمن دونه.

(١٣) وان المؤمنين المتقين على من بغى منهم، أو تبغى دسيعة ظلم أو اثما، أو عدوانا، أو فساداً بين المؤمنين، وأن أيديهم عليه جميعاً، ولو كان ولد أحدهم.

(١٤) ولا يقتل مؤمن مؤمنا في كافر، ولا ينصر كافراً على مؤمن.

(١٥) وان ذمة الله واحدة يجير عليهم أدناهم، وأن المؤمنين بعضهم موالي بعض دون الناس.

---

(١) المفرح ـ الذي أثقله الدين. أنظر الروض الأنف جـ ٢ ص ١٧.

(١٦) وأنه من تبعنا من يهود فإن له النصر والأسوة غير مظلومين ولا متناصر عليهم.

(١٧) وأن سلم المؤمنين واحدة، لا يسالم مؤمن دون مؤمن في قتال في سبيل الله، الا على سواء وعدل بينهم.

(١٨) وأن كل غازية غزت معنا يعقب بعضها بعضاً.

(١٩) وأن المؤمنين يبيء بعضهم على بعض بما نال دماءهم في سبيل الله.

(٢٠) وأن المؤمنين المتقين على أحسن هدى وأقومه.

(٢٠ب) وأنه لا يجير مشرك مالا لقريش ولا نفسا، ولا يحول دونه على مؤمن.

(٢١) وأنه من اعتبط مؤمناً قتلا عن بينة فإنه قود به، الا أن يرضى ولي المقتول، وأن المؤمنين عليه كافة ولا يحل لهم الا قيام عليه.

(٢٢) وأنه لا يحل لمؤمن من أقر بما في هذه الصحيفة، وآمن بالله واليوم الآخر أن ينصر محدثاً ولا يؤويه، وأنه من نصره او آواه، فإن عليه لعنة الله وغضبه يوم القيامة، ولا يؤخذ منه صرف ولا عدل.

(٢٣) وأنكم مهما اختلفتم فيه من شيء، فإن مرده الى الله والى محمد ﷺ.

(٢٤) وان اليهود ينفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين.

(٢٥) وان يهود بني عوف أمة مع المؤمنين، لليهود دينهم وللمسلمين دينهم، مواليهم وأنفسهم، الا من ظلم وأثم، فإنه لا يوتغ[1] الا نفسه، وأهل بيته.

(٢٦) وان ليهود بني النجار مثل ما ليهود بني عوف.

---

(١) يوتغ ـ يهلك.

(٢٧) وان ليهود بني الحرث مثل ما ليهود بني عوف.

(٢٨) وان ليهود بني ساعدة مثل ما ليهود بني عوف.

(٢٩) وان ليهود بني جشم مثل ما ليهود بني عوف.

(٣٠) وان ليهود بني الأوس مثل ما ليهود بني عوف.

(٣١) وان ليهود بني ثعلبة مثل ما ليهود بني عوف، الا من ظلم وأثم، فإنه لا يوتغ الا نفسه وأهل بيته.

(٣٢) وان جفنة بطن من ثعلبة كأنفسهم.

(٣٣) وان لبني الشطيبة مثل ما ليهود بني عوف وان البر دون الاثم.

(٣٤) وان موالي ثعلبة كأنفسهم.

(٣٥) وان بطانة يهود كأنفسهم.

(٣٦) وانه لا يخرج منهم أحد الا بأذن محمد.

(٣٦ ب) وانه لا ينحجر على ثأر جرح، وأنه من فتك فبنفسه وأهل بيته الا من ظلم وأن الله على أبو هذا.

(٣٧) وأن على اليهود نفقتهم، وعلى المسلمين نفقتهم، وان عليهم النصر على من حارب أهل هذه الصحيفة، وأن بينهم النصح والنصيحة والبر دون الاثم.

(٣٧ ب) وانه لم يأثم امرؤ بحليفه، وان النصر للمظلوم.

(٣٩) وان يثرب حرام جوفها لأهل هذه الصحيفة.

(٤٠) وان الجار كالنفس غير مضار ولا اثم.

(٤١) وانه لا تجار حرمة الا بأذن أهلها.

(٤٢) وانه ما كان بين أهل هذه الصحيفة من حدث، أو اشتجار يخاف

فساده، فأن مرده الى الله والى محمد رسول الله ﷺ، وان الله على أتقى مافي هذه الصحيفة وأبره.

(٤٣) وانه لا تجار قريش ولا من نصرها.

(٤٤) وان بينهم النصر على من دهم يثرب.

(٤٥) واذا ادعوا الى صلح يصالحونه ويلبسونه، وأنهم اذا دعوا الى مثل ذلك، فإنه لهم على المؤمنين، الا من حارب في الدين.

(٤٥ ب) على كل أناس حصتهم من جانبهم الذي قبلهم.

(٤٦) وان يهود الأوس، مواليهم وأنفسهم، على مثل ما لأهل هذه الصحيفة، مع البر المحض من أهل هذه الصحيفة، وان البر دون الأثم لا يكسب كاسب الا على نفسه، وان الله على أصدق ما في هذه الصحيفة وأبره.

(٤٧) وانه لا يحول هذا الكتاب دون ظالم أو اثم، وأنه من خرج آمن ومن قعد آمن بالمدينة، الا من ظلم وأثم، وأن الله جار لمن بر واتقى، ومحمد رسول الله ﷺ.

معرض الآراء

ولقد أثار بعض من بحثوا في أمر هذه المعاهدة طائفة من الآراء ينبغي أن ننظر فيها اذا أنها تتصل بجوانب جوهرية مثل تاريخ المعاهدة، ووحدتها وشمولها. وسنورد هذه الآراء أولا ثم نتولى مناقشتها.

أ ـ تاريخ المعاهدة

أورد Watt في كتابه Muhammad at Medina رأيا لـ Hubert Grimme ذكر فيه أن هذه المعاهدة لا بد أن تكون قد كتبت بعد موقعة بدر

Hubert Grimme, however, argued for a date after Badr on the following grounds: The functions attributed To Muhammad in 23 and 36 Show that his authority was generally recognised; the references to fighting for the faith (fisabil Allah, SS, 19; fid-din, S45) imply that some fighting had taken place; The hostileattitude Towards. Quraysh could have been demanded of Medinan believers only after Badr[1].

ب ـ شمول المعاهدة

رأي ولفنسون ـ وعلق اسرائيل ولفنسون على هذه المعاهـدة بقـولـه[٢] ـ ولقد استغرق ما جاء في هذه المعاهدة عن اليهود أكثر من نصفها مما يدل على أن الرسول كان يحسب حسابا غير قليل لنفوذ اليهود وسلاحهم ولكن الذي يتأمل في هذه الصحيفة يعجب اذ لا يجد للبطون الكبيرة من الأوس والخزرج وبني قينقاع ذكرا فيها، فكيف أمكن أن يعقد النبي عهودا مع البطون الصغيرة من اليهود دون الكبيرة منها؟ « ثم يخلص ولفنسون إلى قولـه ـ وعلى كل حال، فليس من شك في أن النبي قد عقد العقود والعهود مع العرب واليهود بعد حضوره الى يثرب، فعلى ذلك أميل الى الاعتقاد بأنها كانت أكثر من معاهدة واحدة لأننا نجد الرسول يغضب من بني النضير لأنهم لم يشتركوا معه في يوم أحد في حين أنه لم يطلب من بني قريظة أن يشتركوا معه في حرب المشركين ومن جهة أخرى فان عقد معاهدات كثيرة قد يكون في مصلحة الرسول أكثر من عقد معاهدة واحدة تضم جميع البطون لأن المعاهدات الكثيرة تقسم قوة البطون وتضعفها من الوجهة السياسيـة والحربيـة ».

آراء المستشرقين ـ ولقد ذكر ولفنسون آراء المستشرقين في هذه المعاهدة وحصرها في رأيين.

١) **الأول**[٣] ـ ان هذه المعاهدة كانت خاصة بالعرب والبطون اليهودية

---

(١) Watt. M, Mohammad at Medina, Oxford 1956. P 225 6.

(٢) ولفنسون ص ١٢٠.

(٣) نفسه ص ١٢٠.

الصغيرة لأنها كانت منتشرة بين البطون العربية ومتداخلة فيها ومعدودة من مواليها حتى لا يمكن أن يعتبر لها وجود خاص ».

٢) والثاني[١] ـ ان هذه المعاهدة كانت تشتمل على البطون اليهودية الكبيرة أيضاً من بني النضير، وبني قريظة، وبني قينقاع، ولكن مؤرخي العرب المستأخرين حذفوا أسماءها من المعاهدة فيما بعد لأنه ساءهم أن يذكر فيها أن الرسول تعاقد مع بطون خالفته وقاومته مقاومة عنيفة انتهت بسفك الدماء ».

جـ ـ وحدة المعاهدة

الدكتور حميدالله ـ أما الدكتور حميدالله الحيدر أبادى فيرى ان هذه المعاهدة ان هي الا مجموعة من المعاهدات قد ربط بينها في زمان متأخر فيقول[٢]

The Textual evidence, ignoring for a moment the other factors, indicates that what is presented as one whole is in reality a group of numerous documents edited without distinction and grouped together, over lapping in places and completing each other in others. Whole clauses which convey the same stipulation are repeated: 23 and 42, 24 and 36, part of 37 and 46, 30 and 46. It is difficult to accept the assertion that this repetition of definite stipulations was designed delibrately by the author to emphasise the importance of these judgments. Treaties in the classiel era were concise and definite and the only explanation for this phenomenon in this document is that a number of treaties had been drawn at different periods, somethimes containing nimilar clauses, and later grouped together as one document in which the repeated clauses stand as a clue to the original diversity of Texts.

Another clue to the duplicated nature of the text is a repetition of a different kind. Statements like

---

(١) نفسه ص ١٢١.

(٢) Extracted from M. A. Thesis by A. A. Qasim, School Oriental and African Studieos London 1961 P: 13.

وعلى أحسن هدى وأنومه and البر دون الاثم والله على أبر هذا usually indicate the end of treaties... the recurrence of those statements in this document has a more than a more emphatie significance. Their appearance in seven different sections of the text of the indicates that more than one document is involved. It is however difficult to identify with precision where one document ends and the other starts, because if the idea of a series of document is accepted, the probability that every clause would be preserved in its original place in the respective document is very small.

مناقشة لما تقدم

تاريخ المعاهدة

ولقد أخطأ Hubert Grimme فيما ذهب اليه اذا ان هذه المعاهدة قد كتبت قبل بدر والأدلة على ذلك كثيرة ومتعددة، وأولها أن كل ما ورد في كتب السير والتاريخ عن هذه المعاهدة سواء في ترتيب السرد أو ذكر التاريخ يؤكد أنها كتبت عند مقدم النبي المدينة، وما ورد مثبتاً في كتب السير والتاريخ[1] ينبغي ألا يهمل من أجل افتراضات بعض المفترضين وهذا الخطأ الذي ارتكبه Hubert Grimme هنا من اهمال لما ورد في كتب السير بشأن تاريخ المعاهدة هو نفس الخطأ الذي ارتكبه الدكتور حميد الله حينما حاول ان يطعن في وحدة المعاهدة.

والأسباب التي ذكرها Grimme لا تثبت أمام النظر والاستقصاء. فما ذكره من أن المقاليد التي أعطيت للرسول في الفقرتين الثالثة والعشرين، والسادسة والثلاثين، لا بد أن تكون قد أعطيت له بعد بدر لأن فيها اعترافاً عاماً بسلطانه، قول خاطىء، ذلك لأن هجرة الرسول نفسها لم تتم الا بعد أن

(١) ابن هشام م ١ ص ٥٠١ ـ امتاع الأسماع جـ ١ ص ٤٩، الطبري جـ ٢ ص ١٧٢.

انتشر الاسلام انتشاراً واسعاً في المدينة حتى أن استقبال أهلها للرسول[1] يعتبر اعترافاً عاماً بزعامته. ومن ثم فلا غرابة أن يرتضوه منذ وصوله حكماً فيما يشجر بين أطرافهم من خلاف، بل الغرابة أن يتأخر هذا الأمر البسيط الى ما بعد بدر، ونحن نعلم أن خطيب الأنصار، سعد بن معاذ قال للرسول قبيل موقعة بدر[2] « فقد آمنا بك وصدقناك، وشهدنا أن ما جئت به هو الحق، وأعطيناك على ذلك عهودنا ومواثيقنا، على السمع والطاعة، فامش يا رسول الله لما أردت فنحن معك، فوالذي بعثك بالحق، لو استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك، ما تخلف منا رجل واحد ... » وهذه مرتبة من التسليم والولاء أعلى من مرتبة قبول التحكيم التي استكثرها Hubert Grimme ».

أما اليهود فلقد كان الأحوط لهم أن يقبلوا « أن لا يخرج أحد منهم الا باذن محمد » حتى لا يتهموا بأنهم عيون لأعداء الرسول.

وأما قوله بأن الاشارات في الفقرات ١٧، ١٩، ٤٥ الى القتال « في سبيل الله » و « في الدين » توحي أن ثمة قتال قد نشب فنحن لا نرى ما يقتضي هذا الايحاء، وانما نرى أن هذه الفقرات تقرر الوحدة بين المؤمنين، وأنهم يد واحدة على أعدائهم، وأن اليهود لهم ما للمؤمنين حتى لا يطمع طامع في ايجاد ثغرة ينفذ منها الى صفوفهم فهي بمثابة وضع الخطة واحكامها قبل المعركة. والمسلمون حينما خاضوا معركة بدر كانت هذه المعاني قد تأكدت في أنفسهم.

ولقد فاته أمر هام وهو أن بدرا ليست المعركة الأولى بين المسلمين وقريش، اذ أن الحرب بينهما قد بدأت منذ وصول الرسول إلى المدينة اذ قد أخذ في ارسال السرايا منذ الاشهر الأولى[3] لملاحقة قوافل قريش حين نزل

---

(١) الروض الأنف جـ ٢ ص ١٢، ابن سعد م ١ ص ١٥٧ طبعة أوربا.

(٢) ابن هشام م ١ ص ٦١٥.

(٣) ناريخ الطبري جـ ٢ ص ١٢٠، ومغازي الواقدي ص ٤ طبعة مصر.

الاذن بالقتال. فقد روى النسائي والترمذي عن ابن عباس قال: لما أخرج النبي ﷺ من مكة قال أبو بكر: أخرجوا نبيهم ليهلكن، فأنزل الله تعالى ﴿اذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا، وان الله على نصرهم لقدير[1]﴾ فقال أبو بكر: «لقد علمت أنه سيكون قتال[2]» فموقعة بدر لم تكن بداية القتال بين المسلمين وقريش وانما كانت ذروة ذلك القتال.

أما قوله: بأن الموقف العدائي نحو قريش لا يمكن أن يطلب من الأنصار الا بعد موقعة بدر فهو قول مردود اذ أن الموقف العدائي نحو قريش قد طلب من الأنصار قبل الهجرة في بيعة العقبة الثانية[3] وقد عاهد الأنصار عليه الرسول. بل وقد استعجله بعضهم محاربة قريش في ليلة العقبة تلك، فيروي ابن اسحق أن العباس بن عبادة بن نضلة، وهو من زعماء الأنصار، قال للرسول بعد البيعة[4]... «والله الذي بعثك بالحق، ان شئت لنميلن على أهل منى غدا بأسيافنا». قال: فقال رسول الله ﷺ: لم تؤمر بذلك، ولكن ارجعوا الى رحالكم». ومما تقدم يتضح لنا أن هذه المعاهدة قد كتبت قبل موقعة بدر كما تدل النصوص والأحداث.

ولفنسون والمستشرقون:

ولقد وهم ولفنسون كما وهم الفريقان اللذان استشهد بهما من المستشرقين، وذلك لأنهم بحثوا عن اسماء القبائل الكبيرة مثل قريظة والنضير، وقينقاع، وزاد ولفنسون الأوس والخزرج، فلما لم يجدوها مذكورة في المعاهدة أخذوا يتخبطون في التماس التأويل والتفسير. ولو دققوا النظر وجدوا في البحث لما احتاج ولفنسون الى أن يعجب وأن يقوده العجب الى التناقض الشديد بين مقدمة كلامه التي تدل على أهمية المعاهدة، ونتيجته التي تزعم أنها انما كانت

(١) سورة الحج الآية ٣١.

(٢) نفسير القرطبي جـ ١٢ ص ٦٨ طبعة دار الكتب.

(٣) ابن هشام م ١ ص ٤٤٢.

(٤) نفسه ص ٤٤٦-٤٤٨.

معاهدة من معاهدات صغيرة عقدها الرسول مع بعض البطون الضعيفة، بل ولما احتاج الفريق الثاني من المستشرقين أن يرمي المؤرخين المسلمين بتهمة حذف اسماء القبائل اليهودية الثلاث لأسباب ما كان المؤرخون المسلمون ليلتفتوا اليها ويدحضها ما أوردته كتب التاريخ الاسلامي[١]، والسيرة[٢]، والحديث[٣]، والقرآن[٤]، من ذكر مستفيض لموادعة هذه القبائل اليهودية للرسول ونقضها لما عاهدته عليه وما نالها اثر ذلك من جزاء.

ونحن نرى أن هذه القبائل قد اشتركت جميعا في المعاهدة ولكنها ذكرت على هيئة بطون، فأما الأوس والخزرج فقد ذكرت أسماء بطونهم في الفقرات[٥] ٤، ٥، ٦، ٧، ٨، ٩، ١٠، ١١ - وأما بنو قريظة وبنو النضير وبنو قينقاع فقد ذكر كل بطن منهم منسوبا الى اسم البطن العربي الذي كان مولى له، وذلك في الفقرات ٢٦، ٢٧، ٢٨، ٢٩، ٣٠، ٣١ ولكن الذي عمى الامور على ولفنسون وأصحابه هو اغفالهم لجانب هام في تركيب القبيلة العربية وأحلافها، ذلك أن القبيلة اسم عام ينضوي تحت لوائه عدد من البطون يسعى كل بطن منها بمفرده منذ التداعي لعقد حلف أو دخول حرب. ولقد كان هذا متبعًا ومألوفاً حتى بالنسبة لقريش كما في حلف المطيبين[٦]، وفي حلف الأحلاف[٧]، وفي حلف الفضول[٨]. وفي حلف بطون قريش على بني هاشم[٩].

---

(١) ناريخ الطبري جـ ٢ ص ١٧٢.

(٢) ابن هشام م ٢ ص ٤٧-٥٠، وص ١٩٠-٢٠٣، وص ٢٣٣-٢٧٣.

(٣) اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان جـ ٢ ص ٢٥٠، ٢٥١، ٢٥٣، و٢٧٠.

(٤) سورة الحشر بأكملها، وسورة الاحزاب، وسورة المائدة الآيات ٥٦-٧٣.

(٥) السمهودي. - وفاء الوفا جـ ١ ص ١٢٤، والمعارف لابن قتيبة الدينوري ص ٤٩ طبعة مصر ونهاية الارب للقلقشندي طبعة بغداد ص ٢٧٢، ٣٥٠، ص ٢٦٠.

(٦) ابن هشام م ١ ص ١٣٠-١٣٢.

(٧) نفسه.

(٨) ابن هشام م ١ ص ١٣٣.

(٩) ابن هشام ص ٣٥٠ ومعجم ما استعجم جـ ٢ ص ٥٢٦.

واذا كان الاعتراف بالبطون متبعاً في قريش وهي سيدة قبائل أهل الحجاز، فهو أحرى أن يكون أكثر اتباعاً بين الأوس والخزرج الذين كانت الحروب تنشب بين بطونهم لأتفه الأسباب، فالأوفق أن تكون بطون الأوس والخزرج قد اقتسمت بطون أحلافها من القبائل اليهودية الثلاث حتى تستعين بهم في حروب البطون، أو في الحروب العامة حين يعبأ كل بطن منها للبطن الذي يقابله. فالمحالفة بين بني قينقاع والخزرج، أو بين الأوس وبني قريظة وبني النضير، انما كانت محالفة بين القبائل في اطارها العام أو في مبتدأ أمرها ثم تدرجت بفعل الزمن وبتكاثر البطون وتنازعها حتى أصبحت في واقع الأمر ولاء يربط كل بطن يهودي ببطن عربي.

الدكتور حميد الله:

أما الدكتور حميدالله فهو لم ينكر شمول المعاهدة كما فعل ولفنسون وأصحابه، الا أنه أنكر أمراً لا يقل خطراً عن ذلك وهو وحدة المعاهدة. والمحلولة اللغوية التي طعن بها في وحدة المعاهدة لا تعدو أن تكون وهماً أوقعه فيه ابتداعه لطريقة حسابية في التحليل أنت روح المعاهدة وما تجيزه أساليب البيان العربي. فهو لم يزد على أن قام باحصاء بعض العبارات التي تكرر ذكرها أو تشابهت ألفاظها ثم جمع ما أحصاه وخرج من ذلك بنظريته التي زعم فيها أن هذه المعاهدة مجموعة معاهدات جمعت بأخرة على غير نسق أو ترتيب.

والحق أن المعاهدة ليست مهلهلة كما وهم الدكتور حميدالله وحاول أن يحملنا على تصديق ذلك، وانما هي محكمة السرد أشد ما يكون الاحكام، مترابطة الأجزاء أشد ما يكون الترابط حتى أن فقراتها آخذ بعضها برقاب بعض. والتكرار الذي اتخذه الدكتور حميدالله تكأة لنقض وحدة المعاهدة، كان ينبغي أن يسوقه حجة لتأكيد هذه الوحدة، اذ بجانب أنه أمر مألوف في الأساليب العربية هو أمر لازم تقتضيه طبيعة هذه المعاهدة وتعدد الأطراف

التي تشملها أحكامها وهي أكثر من عشرين طرفاً.

واذا كان الدكتور حميدالله قد راعه أن يجد تكراراً يسيراً في تسعة مواضع من المعاهدة فدفعه ذلك الى أن يشك في وحدتها فانا قد وجدنا في المعاهدة تكراراً في ثمانية عشر موضعاً آخر في الفقرات ٣، ٤، ٥، ٦، ٧، ٨، ٩، ١٠، ١١، وفي الفقرات ٢٥، ٢٦، ٢٧، ٢٨، ٢٩، ٣٠، ٣١، ٣٣، وفي ٣٤، ٣٥ ولم تزدنا ملاحظة هذا التكرار، الذي يبلغ ضعف ما لاحظه الدكتور حميدالله الا يقينا بوحدة المعاهدة التي نحسها واضحة في سياق المعاهدة وصياغتها وتركيبها. أما ما زعمه من أن بعض هذه العبارات المكررة تعتبر من خواتيم المعاهدات، فانا لا نتردد بأن نجهر، بعد تدبر واستقصاء، ببطلان هذا الزعم، ونكتفي أن يكون الفيصل بيننا ما جمعه الدكتور حميدالله بخط يده في كتابه «مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوي والخلافة الراشدة[1]» هذه المجموعة التي يبدو أنه نسي أن يرجع اليها ليتحقق من صحة ما ادعاه. فأكثر معاهدات الرسول وخطاباته لم تختم بمثل هذه الجمل وانما كانت تختم بما يقتضيه موضوعها، فهذه العبارات التي ظنها الدكتور حميدالله خواتيم هي في رأينا عبارات لتوثيق العهد وتوكيده أدى الى تردادها تعدد الأطراف وليس تعدد المعاهدات وهي قريبة مما يرد في القرآن الكريم من مثل وصفه تعالى بأنه «علي قدير» و«عليم حكيم» و«غفور رحيم» التي قد تتكرر في السورة الواحدة مرات ومرات وقد ترد في أواسط بعض السور كما قد ترد في أواخر بعضها كيفما اقتضى السياق ذلك دون أن تقسم السورة الى مجموعة من السور أو أن تكون شاهداً بأنها قد نزلت على دفعة أو دفعات.

فنحن نرى فوق كل ما قدمناه من أدلة أن الروح العام الذي ينتظم هذه المعاهدة هو خير شاهد على الشمول الذي افتقده ولفنسون وأصحابه كما أنه خير

---

(١) مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوي والخلافة الراشدة جمعها: الدكتور محمد حميد الله الحيدر آبادي. الطبعة الثانية. القاهرة. مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٩٥٨.

دليل على الوحدة التي افتقدها الدكتور حميدالله. وهو أمر يتصل بالذوق الذي يغني في كثير من الأحيان عن التخبط في الأحكام، وافتعال التأويل للأوهام.

نظرات في المعاهدة

حقوق اليهود وواجباتهم

حرية العقيدة: أهم ما نلاحظه في هذه المعاهدة، أنها جعلت اليهود «أمة مع المؤمنين[١]، وأقرت اليهود على عقيدتهم» لليهود دينهم وللمسلمين دينهم، مواليهم وأنفسهم، الا من ظلم وأثم فانه لا يوتغ الا نفسه وأهل بيته «فهي من هذه الناحية قد كفلت لهم حرية العقيدة، وساوتهم بالمسلمين، غير أن كفالة حرية العقيدة لا تعني عدم دعوة اليهود الى الاسلام والجدال معهم[٢] في أمور دينهم، فلقد أمر الرسول زيد بن ثابت بتعلم كتاب اليهود كما روى ابن اسحق عن زيد بن ثابت قال: لما قدم رسول الله ﷺ المدينة قال لي: تعلم كتاب اليهود فاني والله ما آمن اليهود على كتابي. قال فتعلمه في أقل من نصف شهر[٣]» ونجد الرسول يطوف على اليهود يدعوهم الى الاسلام[٤] وكان بعض اليهود يدعو الرسول الى أن يتهود، كما نجد أبا بكر يذهب اليهم في بيت المدراس[٥] ويجادلهم في الدين[٦]، ويبدو أن الجدال والاتصال كان عاما

---

(١) المعاهدة فقرات رقم ٢٥-٣٠ قارن ذلك بما ورد في الفقرتين ١ و٢.

(٢) الفقرة ١٦ من المعاهدة.

(٣) ابن سيد الناس جـ ٢ ص ١١٥.

(٤) ابن هشام م ١ ص ٥٤٩.

(٥) المدراس كلمة عبرانية تعربت ومعناها دراسة اليهود لكتابهم المقدس أنظر Hebrew English Dictionary.

(٦) ابن هشام م ١ ص ٥٤٩.

بين المسلمين واليهود مما أدى الى نزول كثير من آيات القرآن[١] حتى يتلقى المسلمون الرد على ما يثيره اليهود من مسائل.

محاصرة قريش والدفاع والأمن في المدينة

ونلاحظ أيضاً أن من أهم أغراض هذه المعاهدة فرض الحصار الاقتصادي على قريش، وأن اليهود قد كلفوا بمراعاة ذلك مع سائر أهل المدينة من مؤمنين ومشركين[٢]، كما أنهم كلفوا بالاتفاق مع المسلمين في الدفاع عن المدينة[٣] وعلى كل أناس حصنهم من جانبهم الذي قبلهم[٤]، وأن كل خلاف يشجر بينهم وبين الأطراف المشتركة في هذه المعاهدة يرد للرسول وأن النصر للمظلوم[٥]، وأن اليهود اذا دعوا الى صلح يصالحونه ويلبونه وأنهم اذا دعوا الى مثل ذلك فأنه لهم الا من حارب في الدين[٦]، وأن يثرب حرام جوفها لأهل هذه المعاهدة[٧] غير أن ذلك لا يحول دون ظالم أو آثم[٨].

كما نجد فقرة في هذه المعاهدة تبيح الخروج من المدينة لمن رأى من اليهود ألا يتحمل هذه الواجبات «وأنه من خرج آمن، ومن قعد آمن بالمدينة[٩]» وأحسب أن هذه إنما أريد بها أن يترك الخيار في مغادرة المدينة لمن رأى منهم أنه لا قبل له بحرب قريش أو لا شأن له بالدخول في نزاع معها. ولا أرى أن هذه الفقرة تتعارض مع الفقرة التي جاء فيها «وأنه لا يخرج منهم (أي

---

(١) أسباب النزول للواحدي طبعة هندية مصر، ص ١٥ – ١٣٩ في القول في سورة البقرة، وآل عمران، والنساء والمائدة.

(٢) المعاهدة ٢٠ ب ص ٤٣.

(٣) نفسه ٢٤، ٣٧، ٣٨.

(٤) نفسه ٤٥ ب.

(٥) نفسه ٢٣ و٤٢.

(٦) نفسه ٣٧ ب.

(٧) نفسه ٣٩.

(٨) نفسه ٤٧.

(٩) نفسه ٤٧.

اليهود) أحد الا بأذن محمد[1] » ذلك لأن هذه انما وضعت لقطع السبيل على أولئك الذين قد يجعلون من أنفسهم عيونا لقريش على المسلمين فيخرجون ويدخلون دونما رقيب ، فهذه لتأمين خطط النبي في المدينة ، وتلك لأتاحة الفرصة لمن أراد أن ينزح عن المدينة بمحض أختياره على ألا يعود اليها .

ونلاحظ أيضاً أن الرسول لم يكلف اليهود ، أو حتى الأنصار ، الخروج في السرايا الأولى التي أرسلها لمطاردة قوافل قريش[2] وانا كان يأمر بذلك المهاجرين اذ أنهم هم الذين حربتهم قريش أموالهم وطردتهم من ديارهم.

---

(١) نفسه ٣٦.

(٢) المغازي للواقدي ص ٣ .

مرحلة الجدال والخصام

لقد ثار جدال عنيف بعد المعاهدة بين النبي واليهود في مسائل تتصل بالعقيدة وبموقف اليهود من النبي والمسلمين، فسجل القرآن كثيراً من ذلك الجدال الذي يقدم لنا صورة حية لما كان يشجر بين النبي وبني اسرائيل من خلاف. والقرآن يستعمل أسلوب الجدل الواضح الصريح ويستعمل أسلوب التعريض والتلميح، كما يستعمل أسلوب السرد التاريخي لما كان يقوم به بنو اسرائيل في غابر الأزمان مع أنبائهم، فيهيّء أذهان المسلمين الى أن حاضر بني اسرائيل انما هو امتداد لماضيهم، وليعير اليهود بما فعلوا وبما يفعلون.

ورغم أن التوراة كتاب بني اسرائيل قد حوى من تبكيتهم وتعييرهم أضعاف ما حوى القرآن، وروى أشياء أشد شناعة وأكثر نكراً[1]، الا أن اليهود فيما يبدو كانوا يرون أن التوراة هو كتابهم الذي يضم تاريخهم وقصص أنبيائهم أما القرآن فهو كتاب محمد ومن اتبعه ولذلك كان هجاؤه وتعييره لهم أشد وقعا وأمض أثراً. ولقد كان الناس يقرأون هذه الآيات حال تنزلها وهم يعلمون أنها تشير الى أناس من اليهود أحياء، بل أن بعضهم من السادة أو الرؤساء، يجاورونهم، ويخالطونهم، ويجادلونهم، فيردون عليهم بهذا الذي يتنزل به القرآن.

(١) ارميا الأصحاح الحادي عشر الآيات ٩-١٥.

ولقد كان جماعة من زعماء اليهود وأحبارهم يجادلون النبي ويتعنتونه في الجدال، ورغم أن بعض الأحاديث التي تروي عن جدالهم مع النبي قد دخلها شيء من الحذف والاضافة الا أن جوهرها يدل على أنهم كانوا من أشد الناس لجاجة وخصاماً. ومما يحكى عن مجادلتهم مع الرسول[1]: «أن نفراً من أحبار اليهود جاءوا اليه فقالوا: يا محمد أخبرنا عن أربع نسألك عنهن، فان فعلت اتبعناك وصدّقناك وآمنا بك، فقال: عليكم بهذا عهدالله وميثاقه أن أخبرتكم لتصدقنني؟ قالوا: نعم. قال: فاسألوا عما بدا لكم». قالوا: أخبرنا كيف يشبه الولد أمه، وانما النطفة من الرجل؟ فرد عليهم النبي قائلا «أنشدكم بالله وبأيّامه عند بني اسرائيل، هل تعرفون أن نطفة الرجل بيضاء غليظة، ونطفة المرأة صفراء رقيقة، فأيتهما علت صاحبتها كان لها الشبه؟ قالوا: اللهم نعم، قالوا: فأخبرنا كيف نومك؟ قال: أنشدكم بالله وبأيامه عند بني اسرائيل، هل تعلمون أن نوم الذي تزعمون أني لست به، تنام عينه وقلبه يقظان؟» قالوا: اللهم نعم، قال فكذلك نومي، تنام عيني وقلبي يقظان قالوا: فأخبرنا عما حرّم اسرائيل على نفسه؟ قال: أنشدكم بالله وبأيامه عند بني اسرائيل هل تعلمون أنه كان أحب الطعام والشراب اليه ألبان الابل ولحومها، وأنه اشتكى شكوى فعافاه الله منها، فحرّم على نفسه أحب الطعام والشراب اليه شكرا لله تعالى. فحرم على نفسه لحوم الابل وألبانها؟ قالوا: اللهم نعم، قالوا: فأخبرنا عن الروح؟ قال: أنشدكم بالله وبأيامه عند بني اسرائيل هل تعلمون جبريل، وهو الذي يأتيني؟ قالوا: اللهم نعم، ولكنه يا محمد لنا عدوّ، وهو ملك، انما يأتي بالشدة وبسفك الدماء، ولولا ذلك لاتبعناك. والى هذه الحادثة أشار القرآن في قوله: ﴿**قل من كان عدواً لجبريل فانه نزله على قلبك باذن الله مصدقاً لما بين يديه وهدى وبشرى للمؤمنين. من كان عدوّاً لله وملائكته ورسله وجبريل وميكال فان الله عدوّ للكافرين. ولقد أنزلنا اليك آيات بينات وما يكفر بها الا الفاسقون. أو كلما**

---

(١) تفسير الطبري الطبعة الأميرية جـ ١ ص ٣٤٢.

عاهدوا عهداً نبذه فريق منهم بل أكثرهم لا يؤمنون. ولما جاءهم رسول من عند الله مصدق لما معهم نبذ فريق من الذين أوتوا الكتاب كتاب الله وراء ظهورهم كأنهم لا يعلمون[1]﴾. وقد روى الطبري في تفسيره قصصاً أخرى[2] يفيد بعضها أن هذه الآيات نزلت في جدال دار بين عمر بن الخطاب وبعض اليهود وأن عمر كان يذهب اليهم في بيت المدراس ليجادلهم وهذه الروايات لا تتناقض وانما تتشابه، وقد تكون حدثت كلها في فترات متقاربة ثم جاءت الآيات لتزود جمهور المسلمين بالحجج وتبين لهم الأمر.

ولقد كان فريق من المسلمين يسألون أحبار اليهود عن بعض أشياء في كتبهم المقدسة تتصل بما يجيء في القرآن فكانوا ينكرون عليهم ما سألوه أو يحرّفونه فأشار القرآن الى هؤلاء في مثل قوله: **﴿الذين يكتمون ما أنزلنا من البينات والهدى من بعد ما بيّناه للناس في الكتاب أولئك يلعنهم الله ويلعنهم اللاّعنون[3]﴾**. «بل إن النبي نفسه كان يذهب الى اليهود ويدعوهم فيجادلونه ومما ورد في ذلك «أن النبي دخل بيت المدراس على جماعة من اليهود، فدعاهم الى الاسلام، فقال له النعمان بن عمرو والحارث بن زيد: وعلى أي دين أنت يا محمد؟ قال على ملة ابراهيم ودينه، قالا: فان ابراهيم كان يهودياً؟ فقال لهما الرسول»: «فهلم الى التوراة فهي بيننا وبينكم، فجاء القرآن مشيراً الى هذا الحادث في قوله: ألم تر الى الذين أوتوا نصيبا من الكتاب يدعون الى كتاب الله ليحكم بينهم ثم يتولى فريق منهم وهم معرضون، ذلك بأنهم قالوا لن تمسنا النار الا أياما معدودات وغرّهم في دينهم ما كانوا يفترون[4]».

ونلاحظ أن الجدال حول ابراهيم وأحقية أي الفريقين به لا ينقطع بل ان

---

(١) سورة البقرة الايات ٩٧ - ١٠١.

(٢) تفسير الطبري جـ ١ ص ٣٤١-٣٤٥.

(٣) سورة البقرة آية ١٥٩.

(٤) نهاية الأرب للنويري جـ ١٦ ص ٣٧٧.

النصارى قد دخلوا طرفاً ثالثاً في الجدال حوله ولذلك شملتهم بعض الآيات ﴿يا أهل الكتاب لم تحاجون في ابراهيم وما أنزلت التوراة والانجيل الا من بعده أفلا تعقلون، ها أنتم هؤلاء حاججتم فيما لكم به علم فلم تحاجون فيما ليس لكم به علم والله يعلم وأنتم لا تعلمون، ما كان ابراهيم يهودياً ولا نصرانياً، ولكن كان حنيفا مسلما وما كان من المشركين. ان أولى الناس بابراهيم للذين اتبعوه وهذا النبي والذين آمنوا والله وليّ المؤمنين[1]﴾.

وكان النبي والمسلمون يجادلون اليهود بأنه هو الرسول الذي كانت تبشر به بنو اسرائيل وتستفتح به على العرب وأن كتابه مصدق لما معهم من التوراة، فكان اليهود ينكرون ما كانوا يستفتحون به فأشار القرآن الى ذلك في عدة مواضع منها: ﴿ولما جاءهم كتاب من عند الله مصدق لما معهم وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به فلعنة الله على الكافرين، بئسما اشتروا به أنفسهم أن يكفروا بما أنزل الله بغيا أن ينزل الله من فضله على من يشاء من عباده فباؤوا بغضب على غضب وللكافرين عذاب مهين. واذا قيل لهم آمنوا بما أنزل الله، قالوا: نؤمن بما أنزل علينا ويكفرون بما وراءه وهو الحق مصدقا لما معهم، قل فلم تقتلون أنبياء الله من قبل ان كنتم مؤمنين. ولقد جاءكم موسى بالبينات ثم اتخذتم العجل من بعده وأنتم ظالمون. واذ أخذنا ميثاقكم ورفعنا فوقكم الطور خذوا ما أتيناكم بقوة واسمعوا. قالوا: سمعنا وعصينا وأشربوا في قلوبهم العجل بكفرهم قل بئسما يأمركم به ايمانكم ان كنتم مؤمنين[2]﴾.

كان اليهود يفخرون على المسلمين بأنهم شعب الله المختار، وأن الله لن يعذبهم وأنهم سينعمون في الأخرة من دون الناس فرد عليهم القرآن ﴿قل ان

---

(١) سورة آل عمران الآيات ٦٥ ـ ٦٨

(٢) سورة البقرة الآيتان ٨٩ ـ ٩٣.

كانت لكم الدار الآخرة عند الله خالصة من دون الناس فتمنوا الموت ان كنتم صادقين. ولن يتمنّوه أبداً بما قدمت أيديهم والله عليم بالظالمين، ولتجدنهم أحرص الناس على حياة، ومن الذين أشركوا، يود أحدهم لو يعمر ألف سنة وما هو بمزحزحه من العذاب أن يعمّر والله بصير بما يعملون[1]﴾ وفي هذه الآيات ما يشبه المباهلة التي حدثت بين النبي ووفد نصارى نجران[2] الذين جاءوا ليجادلوه بعد ظهور أمره في المدينة وهكذا لون المباهلة مع أهل الكتاب.

وكان اليهود يسخرون من كل مقدسات المسلمين بل ومن ربهم الذي يعبدون إذ ربما ظنوا أن الله الذي يعبده العرب هو غير يهو اله يهود، ومن ذلك ما يروى عن مجادلة أبي بكر الصديق مع جماعة منهم اذ[3] «دخل الى بيت المدراس فوجد جماعة كثيرة منهم قد اجتمعوا الى حبر من أحبارهم يقال له فنحاص، ومعه حبر آخر يقال له أشيع، فقال أبو بكر لفنحاص: ويحك يا فنحاص اتق الله وأسلم، فوالله انك لتعلم أن محمدًا لرسول الله، قد جاءكم بالحق من عنده، تجدونه مكتوبا عندكم في التوراة والانجيل، فقال لأبي بكر: والله يا أبا بكر، ما بنا الى الله من فقر وانه الينا لفقير، وما نتضرع اليه كما يتضرع الينا، وانا عنه لأغنياء، وما هو عنا بغني، ولو كان عنا غنيا ما استقرضنا أموالنا كما يزعم صاحبكم، ينهاكم عن الربا ويعطيناه، ولو كان غنيا ما أعطانا الربا. فغضب أبو بكر وضرب وجه فنحاص ضرباً شديداً، وقال: والذي نفسي بيده لولا العهد الذي بيننا لضربت عنقك، أي عدو الله. فذهب فنحاص الى النبي فقال: يا محمد، انظر ما صنع بي صاحبك فقال رسول الله ﷺ لأبي بكر «ما حملك على ما صنعت؟ فقال: يا رسول الله، ان عدوّ الله قال قولا عظيماً وذكر قوله - فلما قال ذلك - غضبت لله وضربت وجهه، فجحد فنحاص ذلك، وقال: ما قلت فأنزل الله في ذلك تصديقاً لأبي بكر

---

(١) سورة البقرة الآيتان ٩٤ - ٩٦.

(٢) ابن هشام المجلد ١ ص ٥٧٣.

(٣) نهاية الأرب للنويري جـ ١٦ ص ٣٨١-٣٨٢.

رضي الله عنه: **﴿لقد سمع الله قول الذين قالوا: ان الله فقير ونحن أغنياء سنكتب ما قالوا، وقتلهم الأنبياء بغير حق ونقول ذوقوا عذاب الحريق[1]﴾** وأنزل الله في أبي بكر وغضبه في ذلك: **﴿ولتسمعن من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم ومن الذين أشركوا أذىٍ كثيراً، وان تصبروا وتتقوا فان ذلك من عزم الأمور﴾[2]**.

وفي هذه القصة نلاحظ أن الاهتمام بالجدل الديني قد زاد، وأن اليهود قد بدأوا يجتمعون لدراسة كتابهم فعبارة «جماعة كثيرة منهم» تجعلنا نحس أن الحمية الدينية قد بدأت تثور فلا بد لكل فريق من أن يعرف أمور دينه وأن يكون على بينة منها، ولا أرى أن الجدال كان مقصوراً بين أحبار اليهود وكبار أصحاب الرسول وانما كان يتعداهم فيشترك فيه عامة اليهود وعامة المسلمين. وتدل هذه الحادثة على أن العهد الذي عقده الرسول مع اليهود عند مجيئه الى المدينة كان لا يزال قائماً الا أن حدة الجدل كادت تعصف به. بيد أن سياسة الرسول ووضع المسلمين في المدينة كانا يقتضيان عدم الاشتباك مع اليهود في صراع دموي فأمرهم القرآن بأن يصبروا على ما يلقون من أذى اليهود والمشركين.

ولقد كان بعض اليهود يجادلون النبي والمسلمين ويقولون انه ليس نبياً وأنه لم يتنزل عليه وحي ومن هؤلاء سكين وعدي بن زيد اللذين قالا للنبي[3]: يا محمد ما نعلم أن الله أنزل على بشر من شيء بعد موسى «ولقد كان مسكين وعدي هذان من أحبار اليهود فرد عليهم القرآن في قوله» **﴿إنّا أوحينا اليك كما أوحينا الى نوح والنبيين من بعده وأوحينا الى ابراهيم واسمعيل واسحق ويعقوب والأسباط وعيسى وأيوب ويونس وهارون ورسلا قد قصصناهم عليك ورسلا لم نقصصهم عليك وكلّم الله موسى تكليما. رسلا مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد**

(١) سورة آل عمران آية ١٨١.

(٢) سورة آل عمران آية ١٨٦.

(٣) ابن هشام المجلد الأول ٥٦٥.

الرسل وكان الله عزيزاً حكيماً[1] ﴾.

وكان مسلمو الأوس والخزرج يشتركون بنصيب وافر في هذا الجدال مع اليهود ويذكرونهم بما كانوا يقولونه لهم في الجاهلية عن ترقبهم لمبعث نبي قد أظل زمانه ولا ريب أن بعض هؤلاء الأنصار كانوا يحضرون الجدال الذي يحدث بين النبي واليهود ومن ذلك ما روي بأن الرسول[2]: « دعا اليهود الى الاسلام ورغبهم فيه، وحذرهم عقوبة الله، فأبوا وكفروا وجحدوا، فقال لهم معاذ بن جبل، وسعد بن عبادة، وعقبة بن وهب: يا معشر يهود، اتقوا الله، فوالله انكم لتعلمون أنه رسول الله، ولقد كنتم تذكرونه لنا قبل مبعثه، وتصفونه لنا بصفته، فقال رافع بن حويملة، ووهب بن يهوذا وكانا من كبار أحبار يهود: ما قلنا هذا لكم، وما أنزل الله من كتاب من بعد موسى ولا أرسل بشيراً ولا نذيراً بعده، فأنزل الله تعالى: ﴿يا أهل الكتاب قد جاءكم رسولنا يبين لكم على فترة من الرسل أن تقولوا ما جاءنا من بشير ولا نذير فقد جاءكم بشير ونذير والله على كل شيء قدير﴾[3].

وكان النبي يتعرض لشتى صنوف التحدي والاختبار من جانب أحبار اليهود، فلقد كانوا يعتدون بعلمهم بديانتهم وأسرار شريعتهم ويظنون أن النبي لم يكن يعلم من أمر دينهم ما يعلمون. أو أنهم ربما أرادوا أن يثبتوا أنه طالب ملك وليس نبياً كما يقول، ومن ذلك ما ورد في قصة الرجم وهي تدل على أن اليهود رغم اعترافهم بسلطة الرسول كحاكم على المدينة الا أنهم كانوا يناهضون أمر نبوته، وقد رويت هذه القصة عن أبي هريرة[4] بأن أحبار يهود اجتمعوا في بيت المدراس حين قدم رسول الله ﷺ المدينة، وقد زنى رجل بينهم بعد احصانه بامرأة من يهود قد أحصنت، فقالوا: ابعثوا بهذا الرجل وهذه المرأة الى محمد، فأسألوه كيف الحكم فيهما، وولوه الحكم

(١) سورة النساء الآيتان ١٦٣ - ١٦٥.

(٢) نهاية الأرب للنويري جـ ١٦ ص ٣٨٤.

(٣) سورة المائدة آية ١٩.

(٤) نهاية الأرب للنويري جـ ١٦ ص ٣٨٤-٣٨٥.

عليهما، فان عمل فيهما بعملكم من التجبية - والتجبية الجلد بحبل من ليف قد طلي بقار، ثم تسوّد وجوههما ثم يحملان على حمارين، وتجعل وجوههما من قبل أدبار الحمارين - فاتبعوه، فإنما هو ملك وصدقوه، وان هو حكم فيهما بالرجم فانه نبي فاحذروه على ما في أيديكم أن يسلبكموه، فأتوه فقالوا: يا محمد، هذا رجل قد زنى بعد احصانه بامرأة قد أحصنت فاحكم فيهما، فمشى رسول الله ﷺ حتى أتى أحبارهم في بيت المدراس، فقال: يا معشر يهود اخرجوا الى علماءكم، فاخرجوا اليه عبدالله بن صوريا، وأبا ياسر بن أخطب، ووهب بن يهوذا، فقالوا: هؤلاء علماؤنا، فساءلهم رسول الله ﷺ، ثم قالوا: هذا عبدالله بن صوريا أعلم من بقي بالتوراة فخلا به رسول الله ﷺ، وكان غلاما شاباً من أحدثهم سنا فقال له: يا بن صوريا أنشدك الله وأذكرك بايامه عند بني اسرائيل، هي تعلم أن الله حكم فيمن زنى بعد احصانه بالرّجم في التوراة؟ قال: اللهم نعم، أما والله يا أبا القاسم إنهم ليعرفون أنك لنبي مرسل، ولكنهم يحسدونك، فخرج رسول الله فأمر برجمها، فرجما عند باب مسجده، ثم كفر بعد ذلك ابن صوريا، وجحد نبوة رسول الله ﷺ فأنزل الله تعالى الآيات من سورة المائدة: ﴿**يا أيها الرسول لا يحزنك الذين يسارعون في الكفر من الذين قالوا آمنا بأفواههم ولم تؤمن قلوبهم، ومن الذين هادوا سماعون للكذب سماعون لقوم آخرين لم يأتوك يحرّفون الكلم من بعد مواضعه يقولون ان أوتيتم هذا فخذوه وان لم تؤتوه فاحذروا** -أي الرجم- **ومن يرد الله فتنته فلن تملك له من الله شيئاً أولئك الذين لم يرد الله أن يطهر قلوبهم لهم في الدنيا خزي ولهم في الآخرة عذاب عظيم. سمّاعون للكذب أكالون للسحت فان جاؤوك فاحكم بينهم أو أعرض عنهم وان تعرض عنهم فلن يضرّوك شيئا وان حكمت فاحكم بينهم بالقسط ان الله يحب المقسطين. وكيف يحكمونك وعندهم التوراة فيها حكم الله ثم يتولون من بعد ذلك وما أولئك بالمؤمنين. انا أنزلنا التوراة فيها هدى ونور يحكم بها النبيون الذين أسلموا للذين هادوا والربانيون والأحبار بما استحفظوا من كتاب الله**

وكانوا عليه شهداء فلا تخشوا الناس واخشون ولا تشتروا بآياتي ثمناً قليلا ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون﴾[١].

وهنالك رواية أخرى لقصة الرجم هذه عن عبدالله بن عمر قال: «لما حكّموا رسول الله ﷺ فيها دعاهم بالتوراة، وجلس حبر منهم يتلوها، وقد وضع يده على آية الرجم، فضرب عبدالله بن سلام يد الحبر، ثم قال: هذه يا نبي الله آية الرجم يأبى أن يتلوها عليك، فقال لهم رسول الله ﷺ» ويحكم يا معشر يهود ما دعاكم الى ترك حكم الله وهو بأيديكم؟ فقالوا: أما انه كان فينا يعمل به حتى زنى رجل منا بعد احصانه من بيوت الملوك وأهل الشرف فمنعه الملك من الرجم ثم زنى رجل منا بعده فأراد أن يرجمه فقالوا: لا والله حتى ترجم فلانا، فلما قالوا ذلك اجتمعوا فأصلحوا أمرهم على التجبيبة، وأماتوا ذكر الرّجم والعمل به، فقال رسول الله ﷺ: فانا أول من أحيا أمر الله وكتابه وعمل به ثم أمر بهما فرجما عند باب مسجده[٢] وقصة عبدالله بن عمر هذه تدل على أهمية عبدالله بن سلام والقلائل الذين أسلموا من اليهود في هذه الفترة. اذ أنهم بلا شك ساهموا مساهمة فعالة في هذا الجدال الذي كان لا يفتر ولا ينقطع بين اليهود والمسلمين.

ويبدو أن اليهود كانوا يريدون أن يطعنوا في خلق الرسول وعدله ونزاهته بتعريضه لقضايا يساومونه فيها على الميل لجانبهم أو جانب بعضهم حتى يثبتوا للمسلمين أو يثبتوا للمعجبين به من قومهم أن الرجل ليس نبياً وأن الدنيا تستهويه كما تستهوي غيره من الناس. ومن ذلك ما روي عن اجتماع كعب بن أسد وابن صلوباء وعبدالله بن صوريا، وشأس بن قيس، وقول بعضهم لبعض: «اذهبوا الى محمد لعلنا نفتنه عن دينه فانما هو بشر، فأتوه فقالوا: يا محمد، إنك قد عرفت أنّا أحبار يهود وأشرافهم وساداتهم، وأنّا إن اتبعناك اتبعك يهود ولم يخالفونا، وان بيننا وبين بعض قومنا خصومة، أفنحاكمهم

(١) سورة المائدة الآيات ٤١ ـ ٤٤.

(٢) ابن هشام م ١ ص ٥٦٤-٥٦٥.

اليك فتقضي لنا عليهم، ونؤمن بك ونصدقك؟ فأبى رسول الله ﷺ ذلك وأنزل الله فيهم: ﴿**وأن احكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم واحذرهم أن يفتنوك عن بعض ما أنزل الله اليك فان تولوا فاعلم أنما يريد الله أن يصيبهم ببعض ذنوبهم وإن كثيراً من الناس لفاسقون. أفحكم الجاهلية يبغون ومن أحسن من الله حكما لقوم يوقنون**[1]﴾.

ومسألة النبوة كانت دائماً من أبرز موضوعات الخلاف وقد دار حولها قدر كبير من الجدل. ولعله كان مما يغيظ اليهود أن النبي والمسلمين كانوا يؤمنون بأنبياء بني اسرائيل فلا يقعون فيهم ويقولون لهم ان القرآن مصدق لما معهم وأنه امتداد لدعوتهم والى ذلك الغيظ أشار القرآن في قوله ﴿**قل يا أهل الكتاب هل تنقمون منا الا أن آمنا بالله وما أنزل الينا وما أنزل من قبل وأن أكثركم فاسقون**[2]﴾.

كما كانت مسألة دعوة النبي الى التوحيد مما يزيد في غيظ اليهود منه اذ أنها قد أثارت فيهم الغيرة وأشعرتهم بأنهم مزاحمون فيما كانوا ينفردون به ويتميزون به على العرب والوثنيين، ولعل هذا هو الذي دفع نفرا من اليهود هم[3] النحام بن زيد، وقردم بن كعب، وبحري بن عمرو لأن يذهبوا الى النبي ويقولوا له: يا محمد أما تعلم مع الله الها غيره؟ فأجابهم النبي قائلا: لا اله غيره، بذلك بعثت والى ذلك أدعو.» فقال القرآن فيهم وفي قولهم: ﴿**قل أي شيء أكبر شهادة قل الله شهيد بيني وبينكم وأوحي إليّ هذا القرآن لأنذركم به ومن بلغ أئنكم لتشهدون أن مع الله آلهة أخرى، قل لا أشهد، قل انما هو اله واحد وإني بريء مما تشركون. الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم الذين خسروا أنفسهم فهم لا**

(١) سورة المائدة الآيتان ٤٩ ـ ٥٠.
(٢) سورة المائدة آية ٥٩.
(٣) نهاية الأرب للنويري جـ ١٦ ص ٣٨٨.

يؤمنون[1]﴾ .

ومما ورد في هذه الآثار نجد جانباً آخر لهذا الجدل هو جانب مقارنة اليهود للقرآن بالتوراة وتفضيلهم لها عليه. فيروى أن جماعة منهم[2]، هم محمود بن سيحان، ونعمان بن أضاء، وبحري بن عمرو، وعزيز بن أبي عزيز، وسلام بن مشكم، وفنحاص، وعبدالله بن صوريا، وابن صلوبا، وكنانة بن الربيع أبي الحقيق، وأشيع، وكعب بن أسد، ونلاحظ أن هؤلاء ينتمون إلى مختلف القبائل اليهودية الموجودة في المدينة مما يدل على أنهم كانوا جبهة واحدة في جدالهم مع النبي، فجاء كل أولئك إلى الرسول وقالوا: «أحق يا محمد أن هذا الذي جئت به حق من عند الله، فإنّا لا نراه متسقاً كما تتسق التوراة»؟ فأجابهم النبي قائلاً: «أما والله إنكم لتعرفون أنه من عند الله تجدونه مكتوباً عندكم، ولو اجتمعت الأنس والجن على أن يأتوا بمثله ما جاءوا به» فقالوا عند ذلك: «يا محمد أما يعلمك هذا أنس ولا جن؟ فقال: أما والله إنكم لتعلمون أنه من عند الله، وأني لرسول الله، تجدون ذلك مكتوباً عندكم في التوراة». قالوا: يا محمد فإن الله يصنع لرسول إذا بعثه ما يشاء ويقدر منه على ما أراد، فأنزل علينا كتاباً من السماء نقرؤه ونعرفه، والا جئناك بمثل ما تأتي به. فرد القرآن على هذا قائلاً: ﴿قل لئن اجتمعت الأنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً﴾[3] .

وكان اليهود قد تمادوا في جدال النبي حتى أخذوا يمارونه في صفات الله فقد روي أنه أتى رهط من يهود الى النبي فقالوا له:[4] «يا محمد هذا الله

---

(١) سورة الأنعام الآيتان ١٩ ـ ٢٠.

(٢) نهاية الأرب للنويري جـ ١٦ ص ٣٨٩.

(٣) سورة الاسراء ٨٨. نلاحظ أن سورة الاسراء مكية ويبدو أنها نزلت في جدال أهل مكة ثم أعاد يهود المدينة نفس الحجج وأضافوا اليها حديثهم عن التوراة.

(٤) نهاية الأرب للنويري جـ ١٦ ص ٣٨٤.

خلق الخلق فمن خلقه»؟ فغضب الرسول لذلك حتى امتقع لونه، فجاءه جبريل فسكّنه، فقال: خفض عليك يا رسول الله، وجاءه من الله بجواب ما سألوه عنه: ﴿**قل هو الله أحد الله الصمد. لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوءا أحد**[1]﴾ فلما تلاها عليهم قالوا: فصف لنا كيف خلقه؟ كيف ذراعه؟ كيف عضده؟ فغضب رسول الله ﷺ أشد من غضبه الأول، فأتاه جبريل فقال له مثل ما قال أول مرة، وجاءه من الله بجواب ما سألوه فقال: ﴿**وما قدروا الله حق قدره والأرض جميعا قبضته يوم القيامة والسموات ومطويات بيمينه سبحانه وتعالى عما يشركون**﴾[2] وأحسب أن هذا الجدال عن ذات الله وصفاته هو الذي أدى الى نشأة علم الكلام ودراسة علم التوحيد فيما تلا هذا العهد من عهود الاسلام.

وكما كان اليهود يجادلون النبي في صفات الله فقد كانوا يسألونه كذلك عن أشياء لم يزعم النبي أنه يعرفها كسوءالهم عن الساعة. فقد روى ابن اسحق[3] أن جبل بن أبي قشير ومشمويل بن زيد قالا للنبي «أخبرنا متى الساعة ان كنت نبيا كما تقول»؟ فأنزل الله تعالى في ذلك ﴿**يسألونك عن الساعة أيان مرساها قل انما علمها عند ربي لا يجليها لوقتها الا هو ثقلت في السموات والأرض لا تأتيكم الا بغتة يسألونك كأنك حفي عنها قل انما علمها عند الله ولكن أكثر الناس لا يعلمون**﴾[4]. والسؤال عن الساعة والرد عليه قريب الشبه بالسؤال عن الروح الذي لقنه اليهود لوفد قريش حين جاءهم عقبة بن أبي معيط والنضر بن الحارث ليستعينا بهم في مجادلة الرسول قبل هجرته من مكة، وكما هو معروف فان الرد على تلك الأسئلة قد تأخر خمسة عشر يوما[5]. الا أنني أن الرد على هذه الأسئلة التي

---

(١) سورة الاخلاص.

(٢) سورة الزمر آية ٦٧.

(٣) نهاية الأرب للنويري جـ ١٦ ص ٣٨٨.

(٤) سورة الأعراف آية ١٨٧.

(٥) ابن هشام م ١ ص ٣٠٠-٣٠١.

كانت تثار في المدينة لم يكن يتأخر مثل ذلك الوقت وأرجح أن النبي وكبار اصحابه كانوا يردون على أكثر جدال اليهود في حينه بما عرفوا من روح دعوتهم ثم يتنزل القرآن بعد ذلك فيقوي حجج النبي وأصحابه ويصوغها في أسلوب بليغ يكفل لها البقاء والانتشار.

وبعد أن استنفد اليهود جدالهم مع النبي في الأخبار أخذوا يطالبونه بالمعجزات ونجد الرد على مطالبتهم هذه مسجلا في القرآن في قوله ﴿ **يسألك أهل الكتاب أن تنزل عليهم كتابا من السماء فقد سألوا موسى أكبر من ذلك فقالوا: أرنا الله جهرة فأخذتهم الصاعقة بظلمهم، ثم اتخذوا العجل من بعد ما جاءتهم البينات فعفونا عن ذلك وأتينا موسى سلطانا مبينا. ورفعنا فوقهم الطور بميثاقهم وقلنا لهم ادخلوا الباب سجدا، وقلنا لهم لا تعدوا في السبت وأخذنا منهم ميثاقا غليظا، فبما نقضهم ميثاقهم وكفرهم بآيات الله، وقتلهم الأنبياء بغير حق وقولهم قلوبنا غلف بل طبع الله عليها بكفرهم فلا يؤمنون إلا قليلا. وبكفرهم وقولهم على مريم بهتانا عظيما** ﴾[1]. وفي هذه الآيات يـأس من ايمان اليهود حتى ولو جاءتهم أكبر المعجزات كما فيها استثارة لعداء النصارى مع اليهود ولقد كان ذكر قتل بني اسرائيل للأنبياء والاشارة الى حديثهم عن أم المسيح كان يجد صدى عند نصارى الشام. كما أرى أنه لا بد أن نقف قليلا عند الاشارات التي تكرر ذكرها في القرآن عن تعود بني اسرائيل قتل الأنبياء في مثله قوله: ﴿ **فريقا كذبتم وفريقا نقتلون** ﴾[2] اذ أن هذه الآيات لا بد أنها هيأت الأذهان الى حادث كعب بن الاشرف وغزوة بني النضير وسيأتي بيان ارتباط هذين الحادثين بموضوع محاولاتهم قتل النبي.

ثم أخذ القرآن يذكر أن العقوبات التي أنزلت ببني اسرائيل انما كانت جزاء وفاقا لما اقترفوا ولما لا يزال أحفادهم يقترفون من أخذ للربا وأكل

(١) سورة النساء الآيتان ١٥٣ ـ ١٥٦.

(٢) سورة البقرة آية ٨٧.

لأموال الناس: ﴿**فبظلم من الذين هادوا حرمنا عليهم طيبات أحلت لهم وبصدهم عن سبيل الله كثيراً وأخذهم الربا وقد نهوا عنه وأكلهم أموال الناس بالباطل واعتدنا للكافرين منهم عذابا أليما**﴾[1] .

وبدأ اليهود في نشاط عملي ضد الرسول بعد هذه الفترة من الجدال فصاروا يحرضون بعض أصدقائهم من مسلمي الأوس والخزرج على ألا يعطوا ما يطلبه الرسول من أموال، كما بدأ بعضهم في تنفيذ ذلك حتى يقتدي بهم فأشار القرآن إلى صنيعهم في قوله ﴿**الذين يبخلون ويأمرون الناس بالبخل ويكتمون ما آتاهم الله من فضله**﴾ أي التوراة التي فيها تصديق ما جاء به الرسول ﴿**واعتدنا للكافرين عذابا مهينا. والذين ينفقون أموالهم رئاء الناس ولا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ومن يكن الشيطان له قرينا فساء قرينا. وماذا عليهم لو آمنوا بالله واليوم الآخر وأنفقوا مما رزقهم الله وكان الله بهم عليما**﴾[2] .

وبعد هذا التحريض الخفي على عدم الانفاق ذهب اليهود خطوة أبعد فصاروا يجترئون على النبي في المناقشة ليجترئ عليه غيرهم من المسلمين. ومن مجترئي اليهود رفاعة بن زيد بن التابوت، أحد عظماء اليهود فقد كان يلوي لسانه اذا لقي النبي ويقول له: ارعنا سمعك يا محمد حتى نفهمك، ثم يطعن في الاسلام ويعيبه[3]. والى رفاعة هذا وأضرابه أشار القرآن في قوله ﴿**ألم تر الى الذين أوتوا نصيبا من الكتاب يشترون الضلالة ويريدون أن تضلوا السبيل. والله أعلم بأعدائكم وكفى بالله وليا وكفى بالله نصيرا. من الذين هادوا يحرفون الكلم عن مواضعه ويقولون سمعنا وعصينا واسمع غير مسمع وراعنا ليّا بألسنتهم وطعنا في الدين، ولو أنهم قالوا سمعنا**

---

(١) سورة النساء آية ١٦٠.

(٢) سورة النساء الآيتان ٣٧ ـ ٣٩.

(٣) نهاية الأرب للنويري جـ ١٦ ص ٣٨٢-٣٨٣.

وأطعنا واسمع وانظرنا لكان خيرا لهم وأقوم ولكن لعنهم الله بكفرهم فلا يؤمنون الا قليلا ﴾[1].

واثر محاولات الوقيعة بين المسلمين كتلك التي قام به شأس بن قيس[2] ومحاولات السخرية من النبي ودعوته، توترت العلاقات بين النبي واليهود وأمر المسلمون بوقف علاقاتهم الاجتماعية باليهود والى ذلك أشار القرآن في قوله ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا الذين اتخذوا دينكم هزوا ولعبا من الذين أوتو الكتاب من قبلكم والكفار أولياء، واتقوا الله ان كنتم مؤمنين ★ واذا ناديتم الى الصلاة اتخذوها هزوا ولعبا ذلك بأنهم قوم لا يعقلون ★ قل يا أهل الكتاب هل تنقمون منا الا أن آمنا بالله وما أنزل الينا من قبل وأن أكثركم فاسقون ★ قل هل أنبئكم بشر من ذلك مثوبة عند الله من لعنه الله وغضب عليه وجعل منهم القردة والخنازير وعبد الطاغوت أولئك شر مكانا وأضل عن سواء السبيل ★ واذا جاءوكم قالوا آمنا وقد دخلوا بالكفر وهم قد خرجوا به والله أعلم بما كانوا يكتمون ★ وترى كثيراً منهم يسارعون في الاثم والعدوان وأكلهم السحت لبئس ما كانوا يعملون ★ لولا ينهاهم الربانيون والأحبار عن قولهم الاثم وأكلهم السحت لبئس ما كانوا يصنعون ★ وقالت اليهود يد الله مغلولة غُلّت أيديهم ولعنوا بما قالوا بل يداه مبسوطتان ينفق كيف يشاء وليزيدن كثيراً منهم ما أنزل اليك من ربك طغيانا وكفرا، وألقينا بينهم العداوة والبغضاء الى يوم القيامة، كلما أوقدوا نارا للحرب أطفأها الله ويسعون في الأرض فساداً والله لا يحب المفسدين﴾[3].

ولقد بينت هذه الآيات في صورة قوية عنيفة ما وصلت اليه سوء الحال

---

(١) سورة النساء الآيتان ٤٤ - ٤٦.

(٢) ابن هشام م/ ١ ص ٥٥٥.

(٣) سورة المائدة الآيات ٥٧ - ٦٤.

بين المسلمين واليهود وبلغ هذا الانفصال في العلاقات ذروته في تحويل القبلة اذ كانت القبلة الى بيت المقدس في الصلاة هي الظاهرة الدينية المشتركة بين اليهود والمسلمين. ولقد حرص النبي على ابقاء القبلة الى بيت المقدس رغم اعلان بعض المسلمين من عرب المدينة كراهيتهم لذلك كما في قصة البراء بن معرور التي أوردناها في فصل سابق[١]. ولقد كان الاتجاه إلى بيت المقدس أول الأمر يفيد معنى هاماً وهو تأكيد ايمان المسلمين بأن دعوتهم متممة لليهودية والنصرانية اللتين كانتا تمثلان دعوة التوحيد قبل ظهور الاسلام، فلما تأكد هذا المعنى وتأكد معه أن اليهود وهم الممثلون لديانة التوحيد في المدينة لا يهيئوك مجالا لنشر الاسلام بينهم بل ويرفضون ويقاومون ذلك، لم يبق الا العرب فاتجه الرسول الى الكعبة باعتبارها قبلة ابراهيم الأب الأول لعقيدة التوحيد، وقبلة العرب المرتجى قيامهم بنشر خاتمة رسالات التوحيد.

وجلي أن تحويل القبلة أثار كثيراً من اللغط في المدينة وكان مدعاة لسخرية اليهود من النبي والمسلمين وقد أشار القرآن الى ما سيقوله اليهود ووصفهم بالسفه وتولى الرد عليهم في قوله ﴿**سيقول السفهاء من الناس ما ولاهم عن قبلتهم التي كانوا عليها قل لله المشرق والمغرب يهدي من يشاء الى صراط مستقيم**﴾[٢]. وأبان أن القبلة الأولى انما كانت أمراً موقوتا ولحكمة اقتضاها الله وقد بينها وأكد أن اليهود لن يتبعوا قبلة الرسول أو يقبلوا دعوته ولو أتاهم بكل آية ومعجزة يطلبونها[٣].

وبعد انقطاع العلاقات الفكرية باليأس من الجدال مع اليهود، وانقطاع العلاقات الاجتماعية بدعوة المسلمين الى عدم اتخاذهم أولياء أو اصدقاء، وبعد انقطاع علاقات الشعائر الدينية بتحويل القبلة الى الكعبة لم يبق هناك الا

---

(١) ص ٣٩ من هذا البحث ـ وابن هشام م/ ١ ص ٤٣٩-٤٤٠.

(٢) سورة البقرة آية ١٤٢.

(٣) واضح ذلك من سورة البقرة آية ١٤٥.

مرحلة واحدة هي مرحلة وقوع الصدام بين المسلمين واليهود. والراجح أن هـذا الصدام لم يؤخر وقوعه الا سببان هامان داخل المعسكرين المتخاصمين.

فالسبب الأول هو انشغال اليهود باختلافاتهم الداخلية والعداء المتأصل بين قبائلهم الكبرى الثلاث بني قريظة وبني النضير وبني قينقاع. ولا بد أنهم قد بدأوا يوحدون صفوفهم في مجابهة الرسول في فترة الجدل وفي فترة الكيد الا أن تلك الوحدة لم تبلغ حتى ذلك الوقت مرحلة الحلف ونسيان التراث وان كانت قد أوشكت أن تبلغها. وأما السبب الثاني فهو انشغال المسلمين بأعدائهـم من قريش خارج المدينة وخشيتهم من أن ينشغلوا بحرب مع اليهود داخل المدينة فيفاجأون بهجوم من خارجها. ولقد حسم ذلك وقوع معركة بدر الكبرى بين النبي وقريش اذ انتهت بانتصار باهر للمسلمين على مشركي قريش حفزهم لأن يدعموه بانتصار آخر على أعدائهم المقيمين بين ظهرانيهم في المدينة.

ولا بد أن الرسول وهو خارج الى بدر كان يقدر انتقاض اليهود من وراء ظهره على المدينة ولذلك أعلن أنه خارج طلباً للعير بل أن الأربعة عشر والثلاثمائة رجلا الذين شهدوا معه بدراً لم يكونوا هم كل عدة المطيقين لحمل السلاح من المسلمين ولربما كان قد استبقى عدداً من المسلمين ليحموا المدينة اذا انتقض اليهود على أهلها في غيبته. أما اليهود فـانهم لم ينقضـوا أثنـاء غيبة الرسول لأنهم قدروا أنه اذا حدث صدام بين المسلمين وقريش فان قريشا ستكفيهم مؤونة النبي وأصحابه وستقضي عليهم قضاء مبرماً لتفوقها عليهم في العدد والعدة. فلما انجلت المعركة من غير ما كانوا ينتظرون ذهلوا فعوجلوا قبل أن يفيقوا ويجتمع شملهم. وفي هذا الصدام الذي بدأ بين الرسول واليهود عقب بدر واستمر لبضع سنوات اتبع الرسول سياسة تدل على مهارة فائقة وذلك أنه استطاع عزل كل قبيلة يهودية بمفردها والانقضاض عليها في وقت لا تلقى فيه نصيراً داخل المدينة أو خارجها.

مرحلة الصدام

بنو قينقاع (أ)

حينما انتصر النبي في معركة بدر على قريش أرسل زيد بن حارثة الى المدينة ليزف بشرى الانتصار الى أهلها، فصعق اليهود والمنافقون وأخذوا يقولون: ما جاء زيد الا فلا وأن محمداً قد هزم[1].

وكان بنو قينقاع أكثر اليهود غيظاً لذلك الانتصار وأشدهم خطراً على النبي، اذ بجانب العداوة الدينية التي تجمعهم مع سائر اليهود ضد النبي فلقد كانوا حلفاء عبدالله بن أبي سيد الخزرج الذي كان ينظم له الخرز ليتوج ملكا على المدينة قبيل قدوم الرسول[2]. فأفسدت هجرة النبي عليه أمره فحنق وحمل لواء المعارضة ضده وأصبح كبيراً للمنافقين الذين يظهرون الاسلام ويضمرون العداء للرسول ويتعاونون مع اليهود. وبجانب هذا كان بنو قينقاع أكثر اليهود ضيقاً بالنبي والمسلمين وذلك لأنهم كانوا يعتمدون على السوق في حياتهم ولم تكن لهم أرضون ولا مزارع كبقية قبائل يهود بل كانوا

---

(١) انظر ابن هشام م ٢ ص ٤٧-٥٠، والروض الأنف جـ ٢ ص ١٢٠-١٢١، والمغازي للواقدي ص ١٣٨-١٤٤، وابن سعد جـ ٢ القسم الأول ص ١٩-٢٠، وعيون الأثر جـ ١ ص ٢٩٤-٢٩٦، وامتاع الأسماع جـ ١ ص ١٠٣-١١٠، ونهاية الأرب للنويري جـ ١٧ ص ٦٧-٧٠.

(٢) ابن هشام م ٢ ص ٤٧.

صاغة[1] يعملون في السوق ومن ثم كانوا أشد شعوراً بمنافسة مهرة التجار من قريش، أمثال عبد الرحمن بن عوف[2] الذين دخلوا سوق المدينة وهم لا يملكون مالا فأثروا في أيام قلائل.

وكان أن عمل بني قينقاع في السوق يجعلهم أكثر تعرضا للجدل مع المسلمين وأكثر احساساً بالعداء للرسول. كما أن سكناهم في وسط المدينة بين الأحياء العربية[3] كان يذكي هذه العداوة ويجعلهم أشد خطراً في حالة انتقاض اليهود على النبي والمسلمين.

وجليّ أن النبي كان يدرك خطر بني قينقاع فقرر أن يبدأ بهم، فجمعهم بعد عودته في سوقهم وحذرهم مثل ما نزل بقريش من الهزيمة. فأجابوه في صلف[4]: يا محمد انك ترى أنا قومك، لا يغرنك أنك لقيت قوما لا علم لهم بالحرب، فأصبت منهم فرصة، انا والله ان حاربناك لتعلمن أنا نحن الناس. ويتضح من قولهم هذا أنهم كانوا يستشعرون في أنفسهم قوة لما كانوا يوصفون به من أنهم «أشجع يهود[5]»، ولما كانوا يتوقعونه من نصرة ابن أُبيّ ونصرة بقية قبائل يهود. ولا شك أن النبي كان يحسب حساب القوى المناصرة لهم أو التي يحتمل أن تناصرهم فأراد أن يعزلهم عنها حين يصطدم بهم. فتنظر بهم واستمر التحرّش بينهم وبين المسلمين حتى كانت هذه الحادثة من بني قينقاع وذلك: «أن امرأة من العرب قدمت بجلب لها، فباعته بسوق بني قينقاع، وجلست الى صائغ منهم، فجعل ومن معه من اليهود يريدونها على كشف وجهها، فأبت فعمد الصائغ الى طرف ثوبها فعقده الى ظهرها، فلما قامت انكشفت سوءتها، فضحكوا بها، فصاحت. فوثب رجل من المسلمين

---

(١) الواقدي ص ١٤٠.

(٢) البداية والنهاية لابن كثير ط الأولى. السعادة مصر جـ ٣ ص ٢٢٨.

(٣) السمهودي جـ ١ ص ١٥٢.

(٤) ابن هشام/ م ٢ ص ٤٧.

(٥) ابن سيد الناس جـ ١ ص ٢٩٥.

على الصائغ فقتله، وشدت اليهود، على المسلم فقتلوه، فاستصرخ أهل المسلم المسلمين على اليهود، فغضب المسلمون، ووقع الصدام بينهم وبين بني قينقاع[١] وهزم بنو قينقاع فلجأووا الى حصونهم فحصرهم الرسول خمس عشرة ليلة أشد الحصار، كانوا اثناءها يتطلعون الى عون عبدالله بن أبي الذي وعدهم اياه.

فلما جهدوا ولم يأتهم العون يئسوا وآثروا أن يستسلموا. فقالوا للرسول: أفننزل وننطلق، فقال لهم الرسول: لا، الا على حكمي، فنزلوا على حكمه. فأمر بهم فربطوا، واستعمل على كتافهم المنذر بن قدامة السالمي، فمر بهم ابن أبي، فقال: حلوهم، فقال المنذر: اتحلون قوما ربطهم رسول الله ﷺ، والله لا يحلهم رجل الا ضربت عنقه. فوثب ابن أبي وأدخل يده في جنب درع النبي من خلفه وقال: يا محمد أحسن في موالي، فأقبل على النبي غضبان متغير الوجه. فقال: ويلك أرسلني. فقال: لا ارسلك حتى تحسن في موالي، اربعمائة دارع، وثلثمائة حاسر، منعوني يوم الحدائق[٢]. ويوم بعاث[٣] من الاحمر والاسود تريد أن تحصدهم في غداة واحدة. يا محمد اني امرؤ أخشى الدوائر. فقال النبي هم لك، وأمر بهم أن يجلوا من المدينة[٤].

فجاء ابن ابي ومعه سادة بني قينقاع يريد أن يكلم الرسول ليقرهم في ديارهم، فوجد على باب الرسول عويم بن ساعدة فذهب ليدخل فرده عويم، وقال: لا تدخل حتى يؤذن رسول الله بك، فدفعه ابن أبي، فغلظ عليه عويم حتى جحش وجه ابن أبي الجدار، وسال منه الدم، فتصايح حلفاؤه من اليهود

---

(١) ابن هشام م ٢ ص ٤٨. وروى الواقدي ص ١٣٩ عن الزهري عن عروة أن النبي سار اليهم لما نزلت الآية «واما تخافن من قوم خيانة فانبذ اليهم على سواء ان الله لا يحب الخائنين» وذكر هذه الآية ابن سعد جـ ٢ ص ١٩ ولم يذكر ابن سعد قصة المرأة.

(٢) أنظر معجم البلدان لياقوت جـ ٦ طبعة بيروت ص ٢٣٢.

(٣) السمهودي جـ ص ١٥٢-١٥٥.

(٤) الواقدي ص ١٣٩.

وقالوا: أبا الحباب لا نقيم أبداً بدار أصاب وجهك فيها هذا لا نقدر على أن نغيره[1] فحاول ابن أبي أن يغريهم بالبقاء الا أنهم أصروا على الرحيل بعد أن تبين لهم ضعف موقفه وتحول ولاء الناس عنه وعدم اكترائهم له.

وولى الرسول عبادة بن الصامت[2] أمر اجلاء بني قينقاع، وعبادة من سادة الخزرج وهو بمنزلة ابن أبي في حلف بني قينقاع، فجعلوا يقولون له: يا أبا الوليد من بين الأوس والخزرج ونحن مواليك فعلت هذا بنا « فقال لهم عبادة[3]: لما حاربتم جئت الى رسول الله ﷺ فقلت: يا رسول الله اني أبرأ اليك منهم ومن حلفهم، فتساب هو وعبد الله بن أبي في ذلك. ثم طلب بنو قينقاع من الرسول أن يمهلهم حتى يجمعوا ما لهم من ديون على الناس. فأمهلهم الرسول ثلاثة أيام، فلما طلبوا من عبادة أن يزيدهم قال لهم ولا ساعة من نهار لكم ثلاث لا أزيدكم عليها هذا أمر رسول الله ﷺ، ولو كنت أنا ما نفستكم. فلما مضت الثلاث خرج في آثارهم حتى سلكوا الى الشام.

ونلاحظ أن اليهود الآخرين من بني قريظة وبني النضير لم يشتركوا مع بني قينقاع في حربهم هذه، وربما كان ذلك للخلاف القديم بينهم منذ أيام الجاهلية أو لخوفهم من الدخول منفردين في حرب مع الرسول والمسلمين.

فاستضافهم يهود وادي القرى شهراً وحملوا من كان راجلا منهم، وقووهم[4] ثم سار بنو قينقاع من وادي القرى الى أذرعات فمكثوا بها قليلا ثم دخلوا الشام. وقصة بني قينقاع هذه تلقى لنا ضوءاً على أسلوب النبي في أخذ أعدائه من قبائل يهود كما تبين لنا دقة تقديره للموقف ومقدرته الخارقة في سرعة البت حتى استطاع أن يجعل من تلك الحادثة أداة لعزلهم من حلفائهم

---

(١) المغازي للواقدي ص ١٤٠.

(٢) ابن سعد جـ ٣ القسم الثاني ص ٩١.

(٣) المغازي للواقدي ص ١٤٠-١٤١، وابن هشام م ٢ ص ٤٩.

(٤) المغازي للواقدي ص ١٤١.

من اليهود والعرب وأن يباغتهم بها ويطردهم من المدينة.

ورغم أن الخلاف بين النبي واليهود يعتبر خلافاً دينياً في المكان الأول الا أن الحادث الذي أدى الى الصدام بين بني قينقاع والمسلمين لم يكن حادثاً دينياً وانما كان حادثاً يتصل بصيانة الأعراض والدفاع عنها وهو أمر يلتقي فيه مع المسلمين من لم يزالوا يرتبطون بالقيم الجاهلية من عرب المدينة. فمن هذه الناحية كفل هذا الحادث عزل بني قينقاع عن عطف عدد كبير من المنافقين وحرمهم من مناصرتهم لهم في الحرب، اذ أن اعتداء بني قينقاع على المرأة في السوق يعتبر اعتداء على عرض عربي يلزم العرب الدفاع عنه. وما أحسب عربياً مهما كان عداؤه للرسول بمستطيع أن يحارب في جانب بني قينقاع. ولعلّ هذا هو السبب في اخفاق عبدالله بن أبي في أن يجد لهم عونا حتى من بين أهله الخزرج حلفاء بني قينقاع. اذ أنهم بلا ريب كانوا يرون أن موقف النبي في حربه لبني قينقاع انما هو دفاع عن أعراضهم قبل أن يكون دفاعاً عن دعوته.

وكما عزل بنو قينقاع عن نصرائهم من الخزرج والأوس فقد عزلوا كذلك عن بقية القبائل اليهودية وعلى رأسها بنو قريظة وبنو النضير وذلك لتفاهة الحادث الذي أوقع بنو قينقاع أنفسهم به. فهو لم يكن حادثاً دينياً فيستثير حمية بقية اليهود الى جانبهم وانما كان حادثاً صبيانياً يدعو الى التوبيخ أكثر من المؤازرة. كما أن السرعة التي أخذوا بها لم تدع مجالا للتشاور أو الاستعداد لخوض غمار حرب ضد الرسول والمسلمين. ولا ريب أن زعماء بني قريظة وبني النضير قد خطّأوا صنيع بني قينقاع ووصفوهم بالتهور والطيش بدلا من أن يخفوا الى نجدتهم ونصرتهم. بل وربما كان بعضهم يرى أن الخطة المثلى للمقاومة هي احداث ضرب من التنسيق بين قوى المعارضة في المدينة وبين قريش حتى يضعوا النبي والمسلمين بين شقي الرحا. كما أن بعضهم ان لم يكن أكثرهم كان ما زال متأثرا بالعداء الموروث بينهم وبني قينقاع فرأى أن اصطدامهم بالرسول سيحقق مكاسب مزدوجة اذ أنه سيضعف كلا من

الرسول وبني قينقاع وكلاهما عدوّ لدودٌ له. ومهما تكن الأسباب والدوافع فإن طبيعة الحادث الذي نتج عنه الصدام وسرعة أخذ الرسول لبني قينقاع به هما اللذان أديا الى عزلهم عن نصرة المنافقين واليهود والحاق الهزيمة بهم.

وبجانب سرعة الأخذ هذه نلاحظ جانباً آخر لسياسة الرسول وهو اتسامه بالمرونة الكاملة في معالجة الموقف. اذ أنه بعد أن حصر بني قينقاع واضطرهم الى النزول على حكمه أمر بهم فربطوا وهذا يدل على أنه ابدى بأنه كان يريد قتلهم - تماماً كما فعل ببني قريظة بعد أربعة أعوام - الا أنه لما أدرك تشدد ابن أبي في الجدال عنهم، حتى بلغ به الأمر أن يتهم النبي بأنه يتربص به الدوائر، أمر بهم فحلّوا فأثبت بذلك حرصه على وحدة الصف بين العرب في المدينة وأسقط في يد ابن أبي الحجة التي كان يتذرع بها، بل جرّده بذلك من ولاء كثير من أتباعه وقلل من مكانته الاجتماعية في المدينة. وهذا الهبوط في مكانة ابن أبي من أهم الأسباب التي دفعت يهود بني قينقاع لئلا يستجيبوا لالحاحه عليهم في البقاء بعد أن رأوا ما صنعه به عويم بن ساعدة عند باب الرسول.

ولقد واصل النبي سياسة عزل بني قينقاع من أي سند داخلي حتى عند اخراجهم، اذ ولى ذلك عبادة بن الصامت[1] وهو صنو عبدالله بن أبي في سيادة الخزرج حلفاء بني قينقاع. ولقد تشدد عبادة بن الصامت في اخراج بني قينقاع فلم يسمح لهم بالاقامة أكثر مما أذن لهم الرسول. بل واستكثر ذلك عليهم.

ولقد كان امهال بني قينقاع ثلاثة أيام ليجمعوا ما لهم من ديون انما كان اتباعا لسياسة العزل هذه فالثلاثة الأيام التي رآها عبادة كثيرة أراد النبي أن يرضي بها من هم أقل ايماناً من عبادة حتى لا يجدوا في أنفسهم لبني قينقاع من ذلك. بل إن بني قينقاع وهم يجمعون ديونهم انما يخسرون عدداً أكبر من

---

(١) الواقدي ص ١٤٠.

الأصدقاء اذ جعلوا من يقتضونهم الدين غرماء لهم. ولعل بني قينقاع ذهلوا لسرعة البطش التي أخذوا بها في حادث ظنوه طفيفاً ولم يقدروا أنه سيتطور الى قتال وحصار لم يجدوا فيه عونا من اخوانهم في أحلاف الجاهلية أو اخوانهم في الديانة اليهودية. بل إن مرارة العزلة قد أمضت بني قينقاع فلم يخفف من وقعها استضافة يهود وادي القرى لهم شهراً كاملا ولا ما قدّموه لهم من عون ومساعدة. وكأن هزيمة بني قينقاع عقب هزيمة قريش في بدر قد أيأست يهود بني قينقاع وأشعرتهم أن محمداً مظفر على أعدائه فآثروا أن يرحلوا عن جزيرة العرب بعد ما لقوه فيها من خذلان كاد يذهب بأعناقهم وأموالهم.

ولئن كان انهزام قريش في بدر وانهزام بني قينقاع في المدينة قد أيأسا الأخيرين حتى أختاروا الهجرة فلقد دفعا اليهود الذين بقوا في المدينة الى التفكير في مصيرهم، وأصبحوا يخشون أن ينزل بهم ما أنزل ببني قينقاع وقدّر بعض زعمائهم أن لا بد من اتصال الأسباب بينهم وبين قريش ليتعاونوا على حرب الرسول. ولا بد أن قريشا قد فكرت أيضاً في الاستعانة بعداء اليهود للرسول. ولقد قام زعماء بني النضير بتوثيق عرى الاتصال بين أهل مكة ويهود المدينة.

بنو النضير

سلاّم بن مشكم وأبو سفيان:

لم يكد النبي يفرغ من غزوة بدر ويصل الى المدينة حتى جاء أبو سفيان في نفر من قريش ليهاجم المدينة تحلة لقسمه[1] فطرق أبو سفيان حصن حيي بن أخطب، وهو سيد بني النضير فلم يفتح له، فذهب عنه الى سلاّم بن مشكم وهو صنو حيي في السيادة ففتح له وسقاه خمرا وحدثه بما يعلم من أخبار النبي والمسلمين، فرجع أبو سفيان، وقال مثنيا على سلاّم:

واني تخيرت المدينـــة واحـــدا	لحلــف فلم أنــدم ولم أتلـــوم[2]
سقـاني فـرواني كميتـا مـدامـة	على عجـل مني سلام بـن مشكـم
ولما تـولى الجيش قلـت ولم أكـن	لأفـــرحــــه أبشر بعـــز ومغنم
تــأمــل فــان القــوم سر وأنهم	صريح لـؤي لا شماطيـط جـرهـم
وما كـان الا بعـض ليلـة راكـب	أتى ساعيـا مـن غير خلـة معـدم

ومن هذا الشعر يبدو أن زيارة أبي سفيان هذه فتحت بابا من التعاون بين قريش وبني النضير حتى أن أبا سفيان سماه حلفا. ولم يكن رفض حيي فتح

(١) يسمى أصحاب السير هذه الغزوة غزوة السويق انظر ابن سعد جـ ٢ القسم الأول ص ٢٠، وابن هشام م/ ٢ ص ٤٤-٤٦ (ونلاحظ أن ابن هشام يضعها قبل غزوة بني قينقاع، وانظر أيضا ابن سيد الناس جـ ١ ص ٢٩٦، وامتاع الأسماع جـ ١ ص ١٠٦).

(٢) ابن هشام م/ ٢ ص ٤٥-٤٦.

بابه لأبي سفيان، نتيجة لعزوف من جانبه عن التحالف مع قريش أو وفاء لعهده مع النبي وانما الذي منعه من استقبال أبي سفيان هو أنه كان يريد أن يتم اللقاء سرا، أما وقد جاء أبو سفيان في كتيبة من قريش فإن ذلك هـو الذي دعا حييا لأن يأخذ بالأحوط فلا يعرض نفسه لنقمة النبي. ولا شك أن أبا سفيان لم ينس لحيي هذه الحادثة حينما جاءه في مكة ليستعين به عقب اجلاء بني بني النضير.

ولقد كانت العلاقة بين قريش ويهود المدينة يشوبها كثير من الغش والمخادعة. فقريش كانت تريد تسخير اليهود ليقوموا عنها بمحاربة الرسول حتى تشغله حربهم عن التصدي لقوافلها التجارية التي تسير الى الشام فتواصل تجارتها في مأمن من هجمات المسلمين. أما اليهود فقد كانوا يريدون أن يسخروا قريشا لتقوم عنهم بمحاربة الرسول فتقضي عليه وتخلصهم منه ومن المهاجرين ومن الأوس والخزرج كذلك حتى تخلو لهم المدينة. أما الشعر الذي قاله أبو سفيان عن زيارته للمدينة ووصف فيه نزوله على سلاّم بن مشكم انما كان من قبيل استغلال علاقة قريش باليهود والتلويح بها في وجه النبي حتى ينشغل بيهود المدينة ولو لم يكن مراد أبي سفيان كذلك لكان كتمان الحادث أولى من انشاده في شعر يسير بين الناس ويسمعه النبي والمسلمون. بل إن زيارة أبي سفيان هذه قد نبهت المسلمين فبثوا العيون والأرصاد حول زعماء اليهود. غير أن ذلك لم يوقف الاتصال بين أهل مكة ويهود المدينة اذ أن قدوم الوافدين من قريش في فداء رجالهم من أسرى بدر[1] قد أتاح لهم فرص الالتقاء بيهود المدينة فأخذوا يحرضونهم على النبي ويخوفونهم أن يحل بهم ما أحل ببني قينقاع اذا تباطأوا في أمره ويمنونهم النصر والمؤازرة ان هم انتقضوا عليه.

---

(١) الروض الأنف جـ ٢ ص ١٠٥-١٠٧ ومغازي الواقدي ص ٩٨-٩٩.

كعب بن الأشرف[1]:

ولعل اليهود كانوا يرون أن قريشا أحق وأقدر منهم على مهاجة الرسول والقضاء عليه وعلى أتباعه. وربما كان رأي زعماء اليهود أن الموقف في مكة مهيّئاً لأخذ الثأر من النبي والمسلمين بعد أن قتـل سراة قـريش في بـدر وألحق بها هزيمة لا يمحوها الا أن تلحق به هزيمة مثلها. ولعل زعماء اليهود رأوا أنها فرصة سانحة لتحريض قريش حتى تقوم عنهم بحرب النبي فأرسلوا وفدا من رجالهم الى مكة بزعامة كعب بن الأشرف، وكعب من سادة بني النضير[2]، كان بنو النضير قد أرادوا أنَ يكون لهم فضل السبق في تحريض أهل مكة فسارعوا بارسال كعب ومن معه من أبناء قبيلتهم ورأوا أن ذلك أمعن في الكتمان من مشاورة بني قريظة.

وما ان وصل كعب الى مكة حتى أخذ يحرض قريشا على الأخذ بثأرها ويرثي قتلاها في بدر رثاء حارا منه مثل قوله:[3]

طحنت رحـى بـدر لمهلـك أهلـه	ولمثـل بـدر تستهـل وتـدمـع
قتلت سراة الناس حـول حياضـه	لا يبعـدوا ان الملـوك تصرع
ويقـول أقـوام أذل بسخطهـم	ان ابـن أشرف ظـل كعبـا يجزع
صدقوا فليت الأرض ساعة قتلـوا	ظلـت تسيـخ بـأهلهـا وتصـدع

---

(١) انظر خبر كعب بن الأشرف في ابن هشام م/٢ ص ٥١-٥٩، ومغازي الواقدي ص ١٤٤-١٥١، وتاريخ الطبري - ص ١٧٧-١٨١، وامتاع الأسماع جـ ١ ص ١٠٧-١١٠، ونهاية الارب للنويري جـ ١٧ ص ٧٢-٧٧، والروض الأنف جـ ٢ ص ١٢٣-١٢٦، واللؤلؤ والمرجان جـ ٢ ص ٢٧٠-٢٧٢، وجوامع السير ص ١٥٤-١٥٦، وابن سعد جـ ٢ القسم الأول ص ٢١-٢٣.

(٢) انظر الأغاني جـ ١٩ ص ١٠٦ جاء فيها «كعب بن الأشرف مختلف في نسبه فزعم ابن حبيب أنه من طيء وأمه من بني النضير وأن أباه توفي وهو صغير فحملته أمه الى أخواله فنشأ فيهم وساد وكبر أمره، وقيل بل هو من بني النضير.

(٣) الأبيات الأربعة الأولى من مغازي الواقدي ص ١٤٥ والبيتان الأخيران من ابن هشام م/٢ ص ٥٢.

كم قد أصيب بها من ابيض ماجد ذي بهجة يأوي اليه الضيع
طلق اليدين اذا الكواكب أخلفت حمال أثقال يسود ويربع
نبئت أن الحرث بن هشامهم في الناس يبني الصالحات ويجمع
ليزور يثرب بالجموع وانما يسعى على الحسب القديم الأروع

وشاع شعر كعب في مكة حتى أخذ يتناشده الجواري والصبيان. ويبدو أن كعبا غره ما وصل اليه من تهييج لمشاعر أهل مكة بهذا الشعر الذي ينضح بالدعوة إلى القتال، فنسي أنه إنما جاء ليدفع قريشا إلى حرب النبي، ولا بد أن زعماء قريش وعلى رأسهم أبو سفيان كانوا يعرفون هذا الغرض من زيارة كعب ولكنهم لم يمكنوه منه وآثروا أن يحرّكوه كما أراد هو تحريكهم، فاتفقوا معه على أن يعود الى المدينة ويقوم بتحريض أهلها أو على الأقل يهودها على الرسول كما قام بتحريض أهل مكة، وضمنوا له النجاح ووعدوه النصر والمؤازرة. ويبدو أن بعضا ممن ذهبوا مع كعب الى مكة قد آثروا ألا يعودوا الى المدينة واعتبروا أن مهمتهم قد فشلت ففروا الى القبائل اليهودية المجاورة في خيبر أو وادي القرى، ولقد كان النبي يشير إلى هؤلاء حين قال عن كعب: «لو فر كما فر غيره ما اغتيل»[1] ولكن كعبا آثر أن يعود الى المدينة وما ان بلغها حتى أخذ يواصل تحريضه وتمادى في الهجاء والتشبيب بنساء المسلمين والتشبيب في ذاته نوع من الحرب اذ معناه أن يهزم رجالهن ويقوم بسبائهن، فأشار النبي بقتله[2].

واستأذنه في أن يقوم بذلك رجال ممن كانت تربطهم بكعب اوثق الصلات في الجاهلية وهم: محمد بن مسلمة من زعماء الأوس، وأبو نائلة من بني عبد الأشهل وكان أخاً لكعب في الرضاعة، والحارث بن أوس من بني عبد الأشهل، وأبو عيسى بن جبر أخو بني حارثة، ونلاحظ أنهم جميعا من الأوس فأرسلوا اليه أبا نائلة فجاءه فتحدث معه ساعة وناشده شعرا وكان أبو نائلة

(١) المغازي ص ١٥٠.
(٢) ابن هشام م ٢ ص ٥٤.

شاعرا. ثم قال له: «ويحك يا ابن الأشرف اني قد جئتك لحاجة أريد ذكرها لك فاكتم علي. قال: إفعل. قال: كان قدوم هذا الرجل بلاء، عادتنا العرب ورمونا عن قوس واحدة، وقطعت عنا السبل حتى ضاع العيال، وجهدت الأنفس، وأصبحنا قد جهدنا وجهد عيالنا، فقال كعب: أنا ابن الأشرف، أما والله لقد أخبرتك يا ابن سلامة أن الأمر سيصير الى ما كنت أقول. فقال أبو نائلة: ومعي رجال من أصحابي، على مثل رأيي، وقد أردت أن آتيك بهم، فنبتاع منك طعاما وتمرا، ونرهنك ما يكون لك فيه ثقة، واكتم عنا ما حدثتك من ذكر محمد. فقال له كعب: «لا اذكر منه حرفا، ولكن اصدقني، ما الذي تريدون في أمره؟» قال: خذلانه والتنحي عنه قال: سررتني. ثم تحدث معه في أمر الرهن فقال: اترهنوني نساءكم؟ فقال أبو نائلة: كيف نرهنك نساءنا وأنت أشهب أهل يثرب، وأعطرهم. قال: أترهنوني أبناءكم. فقال: لقد أردت أن تفضحنا كيف نرهنك أبناءنا فيسب أحدهم فيقال رهن بوسق أو وسقين، هذا عار علينا، ولكنا نرهنك اللأمة (يعني السلاح) فرضي كعب وواعده أن يأتوه ليلا».

فجاءوه في ليلة مقمرة، فهتف به أبو نائلة، وكان كعب حديث عهد بعرس، فوثب من ملحفته، فأخذت امرأته بناحيتها، وقالت: انك امرؤ محارب، وان أصحاب الحرب لا ينزلون في هذه الساعة. فقال لها: انه أخي أبو نائلة لو وجدني نائما لما أيقظني، فقالت والله اني لأعرف في صوته الشر. فقال لها كعب: لو يدعى الفتى لطعنة لأجاب. فنزل وتحدث معهم وتحدثوا معه ثم قال له أبو نائلة: هل لك يا ابن الأشرف في أن نتماشى الى شعب العجوز، فنتحدث بقية ليلتنا هذه، قال: ان شئتم، فخرجوا يتماشون، فمشوا ساعة، ثم أن أبا نائلة شام يده في فود رأسه ثم شم يده. فقال: ما رأيت كالليلة طيبا أعطر قط ثم مشى ساعة، ثم عاد لمثلها حتى اطمأن، ثم مشى ساعة ثم عاد لمثلها، فأخذ بفود رأسه، ثم قال: اضربوا عدو الله، فقتلوه ثم أتوا النبي فأخبروه.

وصاح ابن الأشرف حين طعنوه صيحة لم يبق حصن من حصون اليهود الا وسمعها فأوقد ناره، فلما أصبح اليهود وعلموا بالخبر خافوا حتى لم يبق بالمدينة يهودي الا وهو يخاف على نفسه. وقال الرسول للمسلمين: من وجدتم من رجال اليهود فاقتلوه[1].

تجديد العهد:

وجاء بنو النضير قوم كعب الى الرسول يشتكون فقالوا[2]: قد طرق صاحبنا الليلة وهو سيد من ساداتنا قتل غيلة بالأجرم ولا حدث علمناه فقال لهم الرسول: «انه لو فر كما فر غيره، ممن هو على مثل رأيه ما اغتيل ولكنه نال منا الأذى وهجانا بالشعر ولم يفعل هذا أحد منكم الا وكان السيف». ودعاهم الى أن يكتب بينهم كتابا ينتهون الى ما فيه، فكتبوه، ولم يرو الرواة نصوص هذا الكتاب والراجح أنه كان تجديدا للمعاهدة الأولى التي نقضها بنو النضير باتصالهم بقريش.

ويبدو من حادث ابن الاشرف هذا أنه كانت هناك محاولة لاثارة الفتنة في المدينة إثر اتفاق بين كعب وزعماء قريش وأن ابن الأشرف كان يتصل بأصدقائه من اليهود ومن منافقي الأوس والخزرج وأخال أن ابن سنينة وهو من تجار يهود وقد قتله حليفه محيصة بن مسعود كان واحدا من هؤلاء[3]. وربما كان ابن الأشرف ومن معه يدبرون مؤامرة لاغتيال الرسول بعد أن فشلت خطة قريش التي أرسلت فيها عمير بن وهب[4].

موقف النبي من كعب بن الأشرف:

نلاحظ أن النبي اتبع مع كعب بن الأشرف سياسة العزل والمباغتة التي

---

(١) المصدر نفسه ص ٥٨.

(٢) المغازي ص ١٥٠.

(٣) الروض الأنف جـ ٢ ص ١٢٥-١٢٦.

(٤) ابن هشام م ١ ص ٦٦١-٦٦٣.

اتبعها مع بني قينقاع. فذهاب كعب الى مكة وتحريضه لأهلها يعتبر عداء سافرا للرسول وخرقا لمعاهدة المدينة. ولقد كان النبي يعلم أن صنيع كعب في مكة والمدينة يلقى تأييدا من اليهود وخاصة قومه بني النضير، وربما كان بعض بني النضير يشاركون كعبا في التدبير والمكيدة سرا. فآثر النبي أن يأخذ كعبا منفردا باعتباره كتيبة معادية وباعتباره الرجل الذي سفر بعدائه له فلا تحوم شبهة حول مقتله. كما أن قتله سيكون عبرة لمن تحدثه نفسه بأن يحذو حذوه من أتباعه لنصرائه ان كان له أتباع ونصراء.

وكعب بلا شك قد قدر أنه سيتعرض للأذى أو للقتل، فما أدركته زوجه من أنه رجل محارب لم يكن ليغيب عنه، بيد أنه لم يكن ليتصور أن قتله سيكون على أيدي من كانوا أقرب الناس اليه. ولقد أخذ كعب من ناحيتين: أولاهما: عدم ادراكه للتحول الكبير الذي طرأ على عواطف عرب المدينة من جرّاء دخولهم في الاسلام، فلقد أصبح ولاء أكثرهم لدينهم الجديد ولنبيه أشد من ولائهم لأحلاف الجاهلية أو لأخوتهم في الرضاعة أو النسب[1]. والثانية أن كعبا قد أخذ من ناحية حرصه على الربح وتأصل طبيعة أخذ الربا فيه، فكان اهتمامه بما سيجنيه من ربح أكثر من اهتمامه بما يدبره له أعداؤه. كما أن عودة كعب الى المدينة دون أن يحضر معه جيشا من قريش كما كان يأمل قومه في المدينة. هذه الأوبة لا بد أن كثيرا من اليهود عدوها اخفاقا من جانب كعب واعتبروه قد فشل في تحريض قريش فعاد ليقوم بتحريضهم هم مما جعلهم يترددون في الاستجابة له وربما كان بعضهم كبني قريظة قد أخذوا يشمتون به. ولقد استفاد حيي بن أخطب من خطأ كعب هذا بعد اجلاء بني النضير فلم يعد للمدينة لتحريض بني قريظة الا بعد أن أحضر معه جيشا كبيرا رغم أن ذلك قد كلفه أن ينتظر عاما كاملا. ولقد كان النبي يدرك بثاقب بصره كل تلك الظروف المحيطة بكعب فرأى أنها تصلح لعزله وتهيّيء الأسباب لانزال الضربة القاضية به.

(١) ابن هشام م ٢ ص ٥٥.

تربص المعارضة:

ويبدو أنَّ معارضة اليهود قد هدأت على دخن بعد تجديد العهد مع الرسول، وأخذوا يتطلعون الى أخبار قريش مما يقصه عليهم أصدقاؤهم من غطفان والقبائل المجاورة. فقد جاء في سبب غزوة القردة[1] أن نعيما بن مسعود الأشجعي - وهو الذي قيل انه خذل بين الأحزاب في الخندق - قدم على كنانة بن أبي الحقيق في بني النضير فشرب معه. ومعهم سليط بن النعمان يشرب وهو مسلم ولم تكن الخمر قد حرمتْ وأرجح أن سليطا كان من عيون المسلمين ولم يكن الأمر مصادفة كما يستفاد من روايات أصحاب السير، فذكر نعيم خروج صفوان بن أمية في عيره، وما معهم من الأموال، فخرج سليط لساعته وأخبر الرسول فأرسل زيدا في طلب عير صفوان فأصابها. ولقد كان الرسول يعلم من اليهود ميلهم نحو قريش ولذلك رفض الاستعانة بهم حين قال له بعض أصحابه وهو خارج الى موقعة أحد: «ألا نستعين بحلفائنا من اليهود[2]؟ فقال لهم: لا حاجة لنا فيهم» وإذ أنه لم يكن يأمن أن ينخذلوا عنه فيفتوا في عضد جيشه كما فعل ابن أبي وجماعته، أو أن يغدروا به وينقلبوا عليه حين يلتحم بقريش. ولم يكن اليهود ليستجيبوا للرسول فيخرجوا معه لوداعهم. فلقد اتضح مدى ما يكنونه للرسول من عداء ومن عزوف عن التعاون معه في قصة مخيريق[3]. ومخيريق هذا كان حبرا من أحبار اليهود ومن كبار أغنيائهم وقد آمن بالنبي ولكنه أسر اسلامه خوفا من بطش اليهود به أو من ضغطهم عليه. حتى اذا كان خروج النبي لملاقاة المشركين في أحد ورأى مخيريق خذلان اليهود للرسول وعدم خروجهم معه رغم أن العهد الذي بينهم وبين الرسول يلزمهم بالقتال معه. دعاهم مخيريق للخروج لنصرة النبي فأبوا عليه واعتذروا بأن اليوم سبت، فأوصى بثروته للنبي قائلا «ان

---

(١) امتاع الاسماع جـ ١ ص ١١٢.

(٢) ابن هشام م ٢ ص ٦٤ وانظر امتاع الأسماع جـ ١ ص ١١٨.

(٣) ابن هشام م م/ ٢ ص ٨٨-٨٩.

أصبت فمالي لمحمد ليصنع فيه ما يشاء »، وخرج يشتد في طلب المسلمين حتى أدركهم بأحد وقاتل معهم حتى قتل. فقال النبي فيه « مخيريـق خير يهود ».
واعتذار اليهود لمخيريق يدل على مكر من جانبهم فهم في قرارة أنفسهم يضمرون العداء للنبي ويتمنون هزيمته ولكنهم لا يريدون أن يصرحوا بذلك العداء اذ هم لا يدرون على من ستدور الدائرة. فانتصار الرسول على قريش قبل عام في بدر جعلهم أكثر احتياطا في الافصاح عن عداوتهم كما أن مقتل كعب بن الأشرف قد علمهم كيف يحفظون ألسنتهم حتى لا ينجلي الموقف عن إخراسها إلى الأبد.

شماتة اليهود بعد أحد:

وما كادت تنجلي معركة أحد عن هزيمة النبي حتى بدأ البشر والطرب يستخفان اليهود، وأخذت الشماتة والمرارة تنضحان في أقوالهم ومجالسهم. فقالوا: « ما محمد إلاّ طالب مُلْكٍ، ما أصيب نبي قط مثل هذا في نفسه وفي أصحابه »[1] فغاظ ذلك أصحاب النبي حتى أن عمر بن الخطاب طلب من الرسول أن يأذن لهم في قتل من سمع ذلك منـه. فقال له النبي: « يا عمر ان الله مظهر دينه ومعز نبيه ولليهود ذمة فلا اقتلهم »[2] ويبدو من هذا أن الرسول كان حريصا على ألا يصطدم باليهود ما استمسكوا بعهدهم الذي عاهدوه. كما أنه لم يكن ليأخذهم بمجرد حديث بلغه عن شماتتهم به وبالمسلمين. وربما كان يرى أن مهاجمتهم في مثل ذلك الوقت قد تؤدي الى انقسام في صفوف المسلمين من عرب المدينة أو تؤدي الى عودة قريش وهي لما تضع السلاح بعد فتستأصل المسلمين، أو قد يؤدي الى تكتل القبيلتين اليهوديتين بني قريظة وبني النضير ضده مما يجعل حربهما معا أمرا عسيرا على المسلمين. ولقد قدر النبي أن يترك اليهود في ذلك الوقت فان كفوا وارعووا

---

(١) امتاع الأسماع جـ ١ ص ١٦٥.
(٢) المصدر نفسه.

فذلك ما أراد فينصرف عنهم إلى أعدائه من المشركين، وان تمادوا في شماتتهم وسخريتهم فسيؤدي ذلك الى فقدانهم عطف أصدقائهم من الأوس بل والى جعلهم لهم أعداء مما يسهل أمر البطش بهم متى كانت الظروف ملائمة لذلك.

ولكن الهزائم التي مني بها المسلمون في أحد وما بعدها قد جرّأت عليهم اليهود كما تجرأ عليهم من حول المدينة من الأعراب مثل بني أسد[1] الذين هموا بالغاره على المدينة، ومثل ما فعله عامر بن الطفيل وبنو عامر وقبائل سليم وعضية ورعل بأصحاب الرسول في بئر معونة[2]، وكما فعلت بنو لحيان بأصحاب الرسول، الذين بعثهم معهم، عند ماء الرجيع[3] من غدر وقتل وتسليم لأهل مكة.

محاولة بني النضير اغتيال الرسول:

ولقد بلغت جرأة بني النضير مداها حين جاءهم الرسول اثر تلك الأحداث فهموا أن يقتلوه. وتفصيل ذلك[4] أن رجلا من المسلمين[5] قتل رجلين من بني عامر في بعض الطريق، جزاء بما فعل بنو عامر بالمسلمين عند بئر معونة[6].

ولم يكن يعلم أن الرجلين لهما عهد من الرسول. فأراد النبي أن يدفع دية الرجلين الى أهلهما، وذهب الى بني النضير ليستعينهم في الدية، فوجدهم في ناديهم وكلمهم فيما جاءهم فيه[7]، فقالوا: «نفعل يا أبا القاسم ما أحببت،

---

(١) المصدر نفسه ص ١٧٠ ومغازي الواقدي ص ٢٦٩-٢٧٤.

(٢) امتاع الأسماع جـ ١ ص ١٧٠ - ومغازي الواقدي ص ٢٦٩-٢٧٤.

(٣) ابن هشام م/ ٢ ص ١٦٩ ومغازي الواقدي ٢٧٥-٢٨٢.

(٤) ابن هشام م/ ٢ ص ١٩٠ - ومغازي الواقدي ص ٢٦٩-٢٨٢.

(٥) الرجل هو عمرو بن أمية الضمري.

(٦) امتاع الأسماع جـ ١ ص ١٧٠ - والمغازي ص ٢٦٩-٢٧٤.

(٧) انظر خبر بني النضير في ابن هشام م ٢ ص ١٩٠-٢٠٣، ومغازي الواقدي ص =

وطلبوا اليه أن يمكث معهم حتى يطعموه، فجلس مستندا الى جدار بيت من بيوتهم، ثم خلوا الى أنفسهم فتناجوا. فقال حيي بن أخطب: يا معشر يهود قد جاءكم محمد في نفير من أصحابه عشرة، وكان معه أبو بكر، وعمر، والزبير، وطلحة وسعد بن معاذ، وأسيد بن خضير، « فاطرحوا عليه حجارة من فوق هذا البيت فاقتلوه، فلن تجدوه أخلا منه الساعة، فانه ان قتل تفرق أصحابه، فلحق من كان معه من قريش بحرمهم وبقي من هاهنا من الأوس والخزرج حلفاؤكم فما كنتم تريدون أن تصنعوا يوما من الدهر فمن الآن». وهذه العبارة تدل على أن اليهود كانوا يفكرون كثيرا قبل هذا في مسألة قتل النبي والتخلص منه.

فقال عمر بن جحاش: «أنا أظهر على البيت فأطرح عليه صخرة» فقال: سلام بن مشكم: «يا قوم أطيعوني هذه المرة وخالفوني الدهر، فوالله لو فعلتم الذي تريدون ليقومن بهذا الدين منهم قائم الى يوم القيامة يستأصل يهودا ويظهر دينه» ونلاحظ أن سلاما بن مشكم يبرز في رواية هذه الحادثة وما بعدها في صورة الرجل الحكيم المشفق من مغبة أعمال حيي وصحبه على بني النضير، على ما يقومون به ضد الرسول، ومهما يكن من شيء فان اعتراض سلام بن مشكم لم يثن المتآمرين عن المضي في تنفيذ خطتهم برمي الصخرة على الرسول.

ويروي الرواة أنه «لما هيأ عمر بن جحاش الصخرة ليرسلها على النبي جاءه الخبر بما هموا به فنهض سريعا كأنه يريد حاجة وتوجه الى المدينة، وجلس أصحابه يتحدثون فلما يئسوا من ذلك قال أبو بكر: «ما مقامنا هنا بشيء، لقد وجه رسول الله لأمر»، فقال حيي: «لقد عجل أبو القاسم كنا نريد أن نقضي حاجته ونفديه» وسار أصحاب الرسول في أثره وندم بنو النضير على ما صنعوا، وأخذوا يقرعون أنفسهم على فعلتهم، واتفقوا أن يقبلوا الخروج

= ٢٨٤-٢٩٠، وابن سعد جـ ٢ ص ٤٠-٤٢، وامتاع الأسماع جـ ١ ص ١٧٨-١٨٣، وتاريخ الطبري جـ ٢ ص ٢٢٣-٢٢٦.

من المدينة اذا طلب النبي اليهم ذلك[1]. ولا أرى أن النبي كان محتاجا الى وحي فيما صنعه بعودته منفردا من بني النضير، ولا نجد في القرآن اشارة الى أنه قد أوحي اليه في ذلك رغم أن بني النضير قد نزلت فيهم سورة كاملة هي سورة «الحشر» تقص ما أحدثوا وما صنع بهم. والذي حدث كما روي: أن النبي قد ذهب الى بني النضير ليستعينهم في الدية ثم يعود مع أصحابه ولكن بنى النضير أصروا على أن يمكث عندهم حتى يطعموه ثم أخذوا يتشاورون في أمر قتله، فخرج النبي لحاجته وتأمل في دعوة اليهود له بالبقاء عندهم وأسعفه في ذلك ما ورد في القرآن في وصف اليهود بأنهم ﴿**يقتلون الأنبياء بغير الحق**﴾ وتقريعه لهم في قوله ﴿**أو كلما جاءكم رسول بما لا تهوى أنفسكم استكبرتم ففريقا كذبتم وفريقا تقتلون**﴾ فرأى أن الأوفق أن يعود سريعا الى موضعه بالمدينة ويترك اليهود، فان كانوا يريدون له اكراما وعونا فان معهم أبا بكر وعمر وصحبهما فسيعودون له بذلك. والا فان القوم قد ائتمروا به، وانهم قد أتاحوا له أن يعزلهم عن بني قريظة لأنهم لم يستشيروهم في هذه المسألة الخطيرة كما لم يستشيروهم من قبل في ارسال كعب بن الأشرف الى مكة، فتتم بذلك عزلتهم عن بني قريظة كما تمت عزلتهم عن اصدقائهم من مسلمي الأوس بما أظهروا من الشماتة والسخرية بالمسلمين في الهزائم المتتالية التي وقعت عليهم.

وأرى أن اليهود كانوا يستوحون تجربة حدثت للمسلمين في يوم أحد حين شاع في المسلمين أن النبي قد قتل فاضطربت صفوف أتباعه وولى كثير منهم الأدبار ولم يجتمع شملهم الا بعد أن علموا بأنه لم يزل حيا فعادوا اليه وأخذوا يدافعون عنه في بسالة نادرة. فبنو النضير كانوا يريدون قتل النبي لا قتل أصحابه ليحققوا بذلك ما فشلت فيه قريش يوم أحد. وكان النبي يعلم ذلك منهم ولذلك عاد الى المدينة. كما أن ترك أصحابه أمر له قيمته إذ أنه

---

(١) المغازي للواقدي ص ٢٨٤.

لما عاد على ترجيح الغدر من جانب اليهود ترك لهم الفرصة ليثبتوا حسن نيتهم بأن يعطوهم العون الذي سألهم فوعدوا أن يبذلوه.

الأمر بالجلاء:

وما ان وصل الرسول الى موضعه ولحق به أصحابه حتى أخبرهم أن بني النضير قد هموا بالغدر به، ووجدوه قد أرسل الى محمد بن مسلمة، فلما جاءه قص عليه أمر بني النضير وأمرهم، أن يذهب اليهم ويخبرهم أن يخرجوا من المدينة، ومحمد بن مسلمة ثقة عند الرسول خاصة فيما يتصل بحربه مع بني النضير، فلقد كلفه من قبل بتولي قتل كعب بن الأشرف فنفذه في دقة واحكام، ولقد بقي سرا مكتوما لا يعلمه الا الذين اشتركوا فيه حتى تم جلاء بني النضير، وربما كان بنو النضير يعلمون أن محمد بـن مسلمة هو الذي تولى قتل كعب بن الأشرف اذ قد تكون أخبرتهم بذلك زوج كعب بما سمعت منه حين عرف صوت محمد بن مسلمة وهو يناديه من خارج الحصن، ولكن حتى لو علم بنو النضير ذلك فما كانوا يستطيعون أن يستيقنوه، ولو استيقنوه فما كانوا يستطيعون أن يفعلوا بمحمد بـن مسلمة شيئا لأنهم لو قتلوه فسيكون قتله سبباً في حـرب الأوس لهم اذ أن الأوس لن تقبل أن يقتل بنو النضير سيدا من ساداتها وتدعهم يخرجون من المدينة كما يتوقعـون ويـرتضـون، وانما ستثأر لسيدها بمقاتلتهم، وما كان بنو النضير بمستعدين للحرب أو يطيقون دخولها وانما كانوا يقدرون أنها اذا نشبت في تلك الظروف فستنتهي بهزيمتهم ولذلك سيعملون على تجنبها ما وسعهم الأمر. وأي كان ذلك فما أحبَّ النبي أن يرسل محمدا بن مسلمة منفردا، وانما أرسله في كتيبة من قومه الأوس حتى يفزع بذلك اليهود. ومن ناحية أخرى فان محمدا بن مسلمة سيد من سادات الأوس وفي ارساله تمسك بالمعاهدة واعتراف بالتحالف بين الأوس وبنى النضير ذلك التحالف الذي ينبغي نقضه على يد سيد من سادات احدى القبيلتين، وهي عادة العرب في الأحلاف منذ الجاهلية، وقد حدث مثال لذلك في الحلف

الذي تم بين الأوس وبين قريش في الجاهلية قبل حرب بعاث فنقضه أبو جهل عمرو بن هشام حين جاء الى المدينة وآذنهم بذلك[1]. ففي ارسال محمد بـن مسلمة حفاظ على وحدة الأوس وارضاء لأولئك الذين لا تزال القيم الجاهلية تسيطر على عقولهم. وضمان لتأييدهم لما أخذه النبي وما أنفذه.

فذهب محمد بن مسلمة الى بني النضير وذكرهم بما كانوا يقولون له عن النبي قبل مبعثه فأنكروا أن يكون هو النبي الذي كانوا يعنون، ثم قال لهم انه قد أرسلني اليكم، وهو يقول لكم: قد نقضتم العهد الذي جعلت لكم بما هممتم من الغدر بي، واخبرهم بما كانوا ارتأووا من الرأي، وظهور عمرو بن جحاش على البيت ليطرح الصخرة، فأسكتوا ولم يقولوا حرفا. وهذا اعتراف منهم ودليل على أن النبي كان محقا فيما رآه وأنه قد ألزمهم الحجة ولم يكن الأمر حيلة احتالها النبي ليخرجهم بها من المدينة كما زعم بعض الكتاب[2].

فقال لهم محمد بن مسلمة بعد ذلك: «فانه يقول لكم: اخرجوا من بلدي فقد أجلتكم عشرا، فمن رؤي بعد ذلك ضربت عنقه، فقالوا: «يا محمد - لابن مسلمة - ما كنا نرى أن يأتي بهذا رجل من الأوس، فقال لهم: «تغيرت القلوب» ونلاحظ أن هذا شبيه بما قالته بنو قينقاع لعبادة بن الصامت وبما أجابهم به[3]. بل ونلاحظ أيضا أن طلب الجلاء من بني النضير أول الأمر مشابه لأمر بني قينقاع بالجلاء أول أمرهم من ناحية الشروط. اذ ان كلا منهما قد طلب منه باديء ذي بدء مغادرة المدينة وأن يحمل معه ما أراد حمله دون أن يعني الجلاء مصادرة ممتلكاته في داخل المدينة أو تجريده

---

(١) تاريخ المدينة المنورة للسمهودي جـ ١ ص ١٥٣.

(٢) مغازي الواقدي ص ١٤٠ - ١٤١ - ٢٨٧.

(٣) The life of MAHOMET by Sir William Muir 1877 abridged New edition, London, Smith P 290.

Mohammed and Mohammedanism P 173 by S.W. Koelle, Rivington edition.

منها . فالجلاء في كلتا الحالتين لم يكن مقصودا به غير اجراءات حفظ الأمن داخل المدينة والتخلص من احتمال الغدر بالنبي أو بالمسلمين. كما نلاحظ أن التضييق في الشروط في كلتا الحالتين انما جاء عقب عصيان اليهود لأمر النبي واستماعهم لتحريض المحرضين.

حيي وابن أبي:

ولعل بني النضير قد قبلوا أول الأمر طلب النبي لهم بالخروج كما كانوا يتوقعون خاصة وقد جاء الطلب دون أن يسلبهم شيئا من ممتلكاتهم وانما هو ابعاد من المدينة الى ما يجاورها. ولعلهم أدركوا بأن النبي قد استطاع عزلهم في هذه المرة، فهؤلاء قومهم من الأوس قد جاءوا ليعلنوهم بأمر الخروج، وبنو قريظة لن يقفوا معهم لأنهم لم يتجشموا مشورتهم في أمر قتل النبي كما لم يتجشموها من قبل في أمر ارسال كعب بن الأشرف الى مكة فهم سيشمتون بهم أو على الأقل سيعتذرون اليهم. وقريش بعيدة عنهم وليس بينهم وبينها اتصال وهم لا يأملون أن تأتي لنصرتهم خاصة بعدما علموه منها مما حدث لكعب بن الأشرف. فلقد كان ما فعلوه لقتل الرسول مغامرة انفردوا بها فان نجحت فقد تخلصوا من عدوّهم وثأروا لسيدهم المقتول، وان فشلت فما عليهم الا أن يذعنوا لما يمليه عليهم من أمر بالجلاء. فأذعنوا ومكثوا أياما يتجهزون وأرسلوا الى ظهر لهم خارج المدينة لتجلب اليهم واستأجروا من أناس من أشجع، وهم بطن من غطفان، ويهود المدينة وخاصة بني النضير تربطهم علاقة حلف وصداقات في غطفان سنجد أثرها فيما يتلو هذه الحادثة من أحداث بين النبي واليهود. كما رأينا أثراً لها في حادث الشرّ الذي اشترك فيه نعيم بن مسعود من قبل مع ابن أبي الحقيقة.

وبينما كان بنو النضير يستعدون للرحيل ويغذون في الجهاز اذ أتاهم رجلان من قبل ابن أبي فقالا:[1] « يقول عبدالله بن أبي لا تخرجوا من دياركم

---

(١) ابن هشام م ٢ ص ١٩١ والمغازي ٢٨٧.

وأموالكم وأقيموا في حصونكم، فان معي ألفين من قومي وغيرهم من العرب يدخلون معكم حصونكم فيموتون من آخرهم قبل أن يوصل اليكم، وتمدكم قريظة فانهم لن يخذلوكم، ويمدكم حلفاؤكم من غطفان، وقد استخف هذا النبأ زعماء بني النضير وخاصة شبابهم وعلى رأسهم حيي بن أخطب، فقبلوا هذا العرض من ابن أبي حتى المتحفظون منهم مثل سلام بن مشكم، فهم يمكن أن يتظاهروا للرسول بأنهم يستعدون للرحيل بينما هم ينتظرون تدبير ابن أبي، فان نجح في مسعاه أعلنوا عصيانهم لأمر النبي والا أفلحوا وخرجوا سالمين.

وقد كان أملهم في ابن أبي كبيرا، فابن أبي يمثل زعامة المعارضة العربية للرسول في المدينة، وهو قد استطاع قبل فترة قصيرة عند مسير النبي الى أحد أن ينخذل عنه بثلث الجيش تقريبا ويعود بهم الى المدينة، وأغفلوا عمق ما كان بينهم وبين هؤلاء من خلاف وظنوا أنها المصائب تجمع المصابين. ولقد أصبحت المدينة في تلك الأيام مجالا لنشاط سري واتصالات واسعة من جانب ابن أبي وبني النضير، ومن جانب النبي والمسلمين خاصة فيما يتصل بكسب بني قريظة وهنا تبرز لنا مهارة النبي السياسية وبراعته، فلقد استطاع مرة أخرى أن يقنع بني قريظة بألا يشتركوا في الدفاع عن بني النضير وأن يدعوهم وشأنهم، فهم ليسوا مسؤولين عما لم يستشاروا فيه من غدر بني النضير، ولربما أكد لزعمائهم أنه سيظل حريصا على عهده الذي أمضاه معهم ما استقاموا هم عليه، وهكذا فاتت الفرصة على ابن أبي وعلى بني النضير، فلما أرسل ابن أبي الى كعب بن أسد زعيم بني قريظة يكلمه أن يمد أصحابه بني النضير أجابه كعب: «لا ينقض من بني قريظة رجل واحد العهد» ويبدو أن ابن أبي لم يقتنع بهذا القول فحاولهم حتى يئس منهم، فلما يئس من نصرتهم أراد أن يلحم الأمر بين النبي وبني النضير، فأخذ يرسل الى حيي ويحرضه، ولا بد أنه كان يمني بني النضير بالمؤازرة والمناصرة ان هم تمردوا على النبي، وأنهم سيجدون العون منه ومن غيره متى بدأوا بالحرب، اذ أن الأمر يحتاج الى من يبدأه وهم أولى الناس بذلك. فطمع حيي في ذلك واستهواه تحريض ابن أبي

فقال لقومه :[1] نروم حصوننا ، وعندنا من الطعام ما يكفينا سنة وماؤنا جار في حصوننا لا نخشى أن ينقطع، أفترى محمدا يحصرنا سنة؟ لا نرى هذا. وكان حيي ومن شايعه قد قدروا بجانب وعد ابن أبي أن قريشا ستقبل لنصرتهم قبل أن يحول الحول، ذلك لأن أبا سفيان كان قد واعد النبي عقب أحد بأن يلقاه عند ماء بدر في مثل ذلك الوقت من العام المقبل[2]. ولكن يبدو أن اليهود كانوا قد انقسموا عند هذا الرأي. ففريق الشيوخ بقيادة سلام بن مشكم يرى الاذعان لأمر النبي والخروج من المدينة قبل فوات الأوان، وفريق الشباب بقيادة حيي بن أخطب يرى المقاومة واحتمال الحصار حتى يأتيهم العون أو تتغير الأحوال من حولهم.

جدال سلام وحيي:

ولقد اوضح سلاّم بن مشكم رأيه لحيي قائلا[3] « منّتك نفسك والله يا حيي الباطل، واني والله لولا أن يسفه رأيك أو يزري بك لاعتزلتك بمن أطاعني من يهود ، فلا تفعل يا حيي ، فقد عرفت أنك خالفتني في الغدر به ، فلنخرج فانه ان كان أوان الثمر جئنا أو جاء من جاء منا الى ثمره فباع أو صنع ما بدا له ثم انصرف الينا فكأنا لم نخرج من بلادنا اذا كانت أموالنا بأيدينا . فانا انما شرفنا على قومنا بأموالنا ، فاذا ذهبت أموالنا كنا كغيرنا من يهود في الذلة والاعدام. وان محمدا ان سار الينا فحصرنا في هذه الصياصي يوما واحدا ثم عرضنا عليه ما أرسل به الينا لم يقبله وأبى علينا .

فقال حيي : « ان محمدا لا يحصرنا ، فهو ان أصاب منا نهزة اهتبلها والا انصرف وقد وعدني بن أبي ما قد رأيت ». فقال سلام : « ليس قول ابن ابي بشيء ، انما يريد ابن أبي أن يورطك في الهلكة حتى تحارب محمدا ، ثم يجلس في

---

(١) المغازي ص ٢٨٧.

(٢) ابن هشام م/ ٢ ص ٩٤ وص ٢٠٩.

(٣) المغازي ص ٢٨٨.

بيته ويتركك، وقد أراد من كعب بن أسد النصر فأبى كعْب، وقال: لا ينقض العهد رجل من بني قريظة وأنا حي. والا فان ابن أبي قد وعد حلفاءه بني قينقاع مثل ما وعدك حتى حاربوا ونقضوا العهد، وحصروا أنفسهم في صياصيهم وانتظروا ابن أبي فجلس في بيته وسار محمد اليهم فحصرهم حتى نزلوا على حكمه، فابن أبي لا ينصر حلفاءه ومن كان يمنعه من الناس كلهم، ونحن لم نزل نضربه بسيوفنا مع الأوس في حربهم كلها الى أن انتهت حروبهم وقدم محمد فحجز بينهم. وابن أبي لا يهودي على دين يهود، ولا هو على دين محمد، ولا هو على دين قومه، فكيف تقبل منه قولا قاله؟» قال حي: «تأبى نفسي الا عداوة محمد والا قتاله. فقال سلام: «فهو والله جلاؤنا من أرضنا، وذهاب أموالنا، وذهاب شرفنا، وسبي ذرارينا مع قتل مقاتلينا».

ورغم أن هذا الجدال المثبت قد يكون مختلفا عن الحوار الذي دار بين سلام وحيي بكلماته وحروفه لما أدخله من تداوله من الرواة من التغيير والتبديل، وما أعملوه فيه من الصقل والترتيب والاضافة والحذف، الا أنه الخلاف الذي كان دائرا بين الفريقين المختلفين من بني النضير. ومنه نتبين أن سلام بن مشكم كان مغلوبا على أمره، وأنه فكر في الانشقاق ولعلّه أحجم عنه خشية أن يضعف ذلك مركز قومه فيعرض من يحاربون منهم للنكال، كما خشي أن يوصم بالعار والفرار، فآثر البقاء مع المهيجين والمحرضين. كما يتبين لنا أن أمر الرسول لهم بادئ ذي بدء لم يكن يعني تجريدهم من أموالهم، ولقد اتخذ سلام من ذلك أقوى حججه التي ارتكز عليها في تحبيذ الخروج. ولقد كان سلام يستقرئ الأحداث الماضية ويلم بالظروف المحيطة به المام الرجل المجرّب البصير الذي يقدر عواقب الأمور حق قدرها ولا ينظر وهو يتأهب للحرب الى خططه وحدها، وانما الى احتمال تدبير أعدائه لمقاومة ما يعده لمواجهتهم فلا يقلل من قدرهم ليخدع نفسه بقوة موهومة أو عبقرية مزعومة تفضيان به الى مغامرة لا تعرف نتائجها. وهذا هو الفرق الأساس بين سلاّم بن مشكم وبين حيي بن أخطب في هذا الموقف.

فبينما نجد سلاّما على حاله التي وصفنا من تقدير لسماحة شروط النبي لهم في الخروج، ومن اشفاق لما قد يطرأ على هذه الشروط من تغيير وتشديد، بل والغاء ان أخفقت محاولة العصيان نجد حييا يعمل بروح المغامر وعقله فلا يأبه لذلك كله ولا يضع له اعتبارا، فسلاّم ينظر نظرة موضوعية للقوى التي يزمع حيي ومن على مثل رأيه الاستعانة بها، فيستبعد بني قريظة لأنهم أعلنوا رفضهم الاشتراك في الانتقاض بل واستبعد ابن أبي نفسه ونفذ بفكره الى مرمى عبدالله بن أبي من إثارة الفتنة، وأوضح رأيه فيه فوصفه بأنه لا يوثق به، وأنه قد خذل حلفاءه بني قينقاع فهو أحرى بأن يخذل أعداءه بني النضير. فلا يغفل سلاّم عن أثر علاقات الجاهلية وتـراثها وأحفادها على تشكيل المواقف والأحداث في الاسلام. فسلاّم هنا يمثل لنا شخصية الشيخ المتأمل المتريث الذي يحاول أن يبني خططه على أسوأ الاحتمالات فيأخذ بالأحوط بينما يمثل لنا حيي بن أخطب شخصية الشاب المتحمس المتعجل المندفع، فهو في غمرة حماسته واندفاعه يقلل مما سيقوم به النبي ضده فينكر انه سيحصرهم فيصوره كأنه أحد قطاع الطريق «وان وجد فرصة اهتبلها والا انصرف». ويعتمد حيي على قول ابن أبي ووعده دون تحفظ أو احتياط، بل ان حييا يندفع وراء عطفة ملتهبة مشبوبة حتى أنه حينما أدرك بذكائه قوة حجج سلاّم بن مشكم التي أفحمته قـرر أن يتبـع نفسـه التي تـأبـى الا قتـال محمد» فغلب عاطفته على فكره. فهو يعتبر أن الأمر أمر قرار واقدام لا أمر تفكير وتدبير. والراجح أن حييا كان يغلب هذا الجانب دائما كلما اضطرته ظروف الصراع على اختيار احدى الطريقين. ولقد بلغ بهذا الاختيار ذروته بعد أكثر من عام من هذا الحادث فآثر البقاء والقتل مع بني قريظة على النجاة والعودة الى قومه في خيبر وفاء لعهده الذي قطعه لكعب بن أسد ابان حصار الأحزاب للمدينة. ولقد قدر النبي صفة البطولة هذه في عدوه اللدود فأكرمه بعد مقتله بسنوات بأن تزوج ابنته صفية بنت حيي بن أخطب حين أتيح له الانتصار النهائي على اليهود.

عصيان اليهود :

ورغم نصائح سلام بن مشكم أبى حيي الا القتال. ويبدو أنه أراد أن يحسم اللجاجة والجدال وأن يجبه سلاما ورهطه بالأمر الواقع حتى يكفوا عن ملاحاته. وهنا تبرز لنا شخصية حيي بن أخطب كمحرض من الطراز الأول، فهو على ضعف حججه العقلية استطاع أن يستثير عواطف بني النضير، وأراه قد استغفر مشاعرهم عن ذل الجلاء وعاره، وعن بطولة كعب بن الأشرف وثأره، بل فوق ذلك استطاع أن يطعن معارضيه دون رحمة أو هوادة، فوصفهم بالجبن والتخاذل والرضى بالدنية في أمر قومهم حتى ألجأهم الى الانزواء أو السكوت وتولى أمر القيادة كلها بين يديه، فأرسل أخاه جدي بن أخطب الى النبي ليقول له عن بني النضير[1] «انا لا نريم عن دارنا فاصنع ما بدا لك» وكان هذا ايذانا بالتمرد والعصيان ما ان سمعه النبي حتى كبر فكبر معه المسلمون وقال لهم: «حاربت اليهود».

ولما فرغ جدي من ايذان الرسول والمسلمين بالعصيان انطلق الى ابن أبي يستمده العون كما وعدهم، فوجده جالسا في نفر من أصحابه ومناوئي النبي ينادي بالسلاح[2]، فدخل ابنه عبدالله بن عبدالله بن أبي فأخذ السلاح ثم خرج يعدو وجدي ينظر فيئس من معونة ابن أبي وعاد الى قومه وأخبرهم بما حدث. فقال حيي: «هذه مكيدة من محمد» فأدرك بعد فوات الأوان أن النبي قد استطاع عزل ابن ابي عزلا محكما حتى أنه لا يستطيع التحكم في ابنه عبدالله فضلا عن التحكم في غيره من الناس. ولعله أراد بقوله هذا أن اتصال ابن أبي ببني النضير وتغريره بحيي انما كان بتدبير من النبي وكيد منه وذلك انتجاع بعيد لا يطوف الا بذهن مفجوع مخذول مثل حيي بن أخطب. ولقد كان له في تفسير سلام بن مشكم لموقف عبدالله بن أبي مندوحة عن هذا التخبط البعيد.

---

(١) امتاع الأسماع جـ ١ ص ١٧٩.

(٢) تاريخ الطبري ٢ ص ٢٢٥.

الحصار وتحريق النخل:

ولم يكن أمام بني النضير ملاذ من الاستعداد للحرب التي أعلنوها فتحصنوا في حصونهم. وزحف اليهم النبي فأخذوا يرشقونه وجيشه بالنبل والحجارة. وكان بنو النضير في حصارهم ذاك يمنون أنفسهم بأن يأتيهم المدد من خارج المدينة من قريش أو من غطفان، ان لم يأتهم من داخل المدينة. وربما قدروا أن مجرد انشغال النبي بحصارهم سيجعل أعداءه الآخرين في داخل المدينة وخارجها يرون أنها فرصة سانحة للهجوم عليه، اذ هو لا يستطيع أن يحارب في جبهتين في وقت واحد. فهيأوا أنفسهم لاحتمال الحصار ولو أدى بهم الأمر الى الانتظار عاما كاملا كما قدر حيي حتى تجيء قريش لموعدها الذي ضربته للنبي يوم أحد[1]. ولكن النبي كان يعلم ما ثار بينهم من خلاف في أمر العصيان، فرأى أن يفسد عليهم خطتهم ويفرق كلمتهم بأن يباغتهم باجراء شديد جديد لم يكونوا يتوقعونه. فأمر بالنخل فقطعت وحرّقت واستعمل على ذلك أبا ليلى المازني، وعبدالله بن سلام[2] (وهو من أوائل من قد أسلموا من أحبار يهود فشق على بني النضير قطع النخل، وكان نخلهم أجود نخل الحجاز وأحسنه[3] فأخذوا يتهمون النبي بأن ذلك فساد وأنه انما ينهى عن الفساد في الأرض، ولقد أثر قولهم في نفوس بعض المسلمين فكان سببا لنزول القرآن بقوله ﴿ما قطعتم من لينة أو تركتموها قائمة على أصولها فباذن الله﴾[4].

فأفاق بنو النضير من أمانيهم التي كانوا يتمنونها في المدد والضرة، وأفزعهم الخطر المحدق بهم والذي أخذ يعمل مزارعهم تحريقا وتخريبا وهم ينظرون من حصونهم لا يستطيعون له دفعا. فوقع الاضطراب في صفوفهم

---

(١) ابن هشام م ٢ ص ٩٥.

(٢) الاصابة م ٢ قسم ١ ص ٧٨٠.

(٣) الروض الأنف جـ ٢ ص ١٧٧.

(٤) سورة الحشر الآية الخامسة.

ولعلهم اتجهوا الى سلاّم بن مشكم والفريق الذي كان معارضا للعصيان ليجدوا لهم مخرجا سريعا مما وقعوا فيه وما أراهم فعلوا ذلك إلا بعد أن أوسعوا حييا وعصبته تقريعا وتوبيخا. فلم يجدوا الا أن يذعنوا لأمر النبي فأرسلوا اليه يسألونه أن يؤمنهم على دمائهم وأموالهم وذراريهم ويخرجون من المدينة. ولكن ما كان النبي ليقبل منهم بعد التمرد والعصيان ما طلبه اليهم قبله فشدد عليهم الشروط عقوبة لهم وأجابهم قائلا «لا أقبله اليوم، ولكن اخرجوا منها ولكم دماؤكم وما حملت الابل الا الحلقة»[1] فلقد اعتبرهم النبي أعداء محاربين بعد أن آذنوه وراشقوه بالنبل والحجارة، ولم ينزلوا الا بعد حصار ودمار واشاعة للرعب والفزع جاءوا بعدهما منهزمين. فعاملهم في شرطه الأخير معاملة الأسرى المستسلمين الذين جرى العرف أن يجردوا من كل سلاح ومتاع وغاية ما يرجى لهم من الاحسان أن توهب لهم حياتهم وأن يظلوا عبيدا يخدمون سادتهم الغالبين، فان وهبت لهم مع حياتهم حريتهم في الخروج من ذل الأسار فذلك فضل كبير، وان وهب لهم مع حريتهم حقهم في أن يحملوا ما استطاعت ابلهم حمله من مال أو متاع فذلك أمر فوق الفضل وفوق الاحسان.

ولكن ذلك لم يعجب حييا وعصبته اذ رأوا فيه منتهى الاذلال والتحقير. وقد فجعوا في تدبيرهم الذي دبروه ومآلهم الذي آلوا اليه فرأوا أن تستمر المقاومة حتى الموت ولكن الذين اتبعوهم في رأيهم الأول لم يكونوا ليتبعوهم في هذا الرأي الأخير فأعلنوا مخالفتهم لهم وارجح أن بعضهم قد هددوا باعتناق الاسلام فقد اسلم اثنان من سادة بني النضير هما يامين بن عمير بن كعب، وهو ابن عم عمرو بن حجاش، وأبو سعد بن وهب، فنزلا وأحرزا أموالهما[2]، وأحسب أنهما وأهلهما كانوا من أهم مصادر أخبار بني النضير. كما

---

(١) امتاع الأسماع جـ ١ ص ١٨٠.

(٢) ابن هشام م/ ٢ ص ١٩٢.

أرى أن معاملة النبي لهما قد أخافت زعماء بني النضير من أن يحذو حذوهما آخرون.

الجلاء:

ولما رأى زعماء بني النضير أن أمرهم سيصير الى فرقة نزلوا على شرط النبي. ويروي الواقدي[1]: «أنه صالحهم على أن يخرجوا من المدينة ولكل ثلاثة منهم بعير يحملون عليه ما شاءوا من مال أو طعام أو شراب ليس غيره»، وجاء أنهم كانوا يخربون بيوتهم بأيديهم مما يليهم والمسلمون يخربون مما يليهم حتى وقع الصلح فجعلوا يحملون الخشب ويحملون النساء والذرية، وأرى أنهم لو صولحوا على أن يخرجوا كل ثلاثة على بعير لما استطاعوا حمل الخشب معهم ولذلك أرجح أن التخريب الذي ورد ذكره في سورة الحشر ﴿يخربون بيوتهم بأيديهم وأيدي المؤمنين فاعتبروا يا أولي الأبصار﴾[2] انما كان بعضه لأنهم أرادوا أن لا يسكن المسلمون منازلهم بعدهم فخربوها[3]، وكان بعضه الآخر في الحصون أيام الحصار، كلما انسحبوا من حصن خربوه، وكلما اقتحم المسلمون عليهم حصنا قاموا بتخريبه[4]، واجتازوه الى ما بعده من الحصون.

وولى النبي اخراجهم من المدينة محمد بن مسلمة الذي ولآه أمرهم بالجلاء كما ولآه من قبل مقتل كعب بن الأشرف، وهذا يدل على مدى ثقة النبي في هذا الصحابي، كما يدل على مكانته بين قومه الأوس. فخرج بنو النضير وشقوا سوق المدينة والنساء في الهوادج عليهن الحرير والديباج، وحلي الذهب والثياب والمعصفرات، وهن يضربن بالدفوف ويزمرن بالمزامير، ويبدو أنهم

---

(١) المغازي ص ٢٨٩.
(٢) سورة الحشر الآية الثانية.
(٣) ابن هشام م ٢ ص ١٩١.
(٤) المغازي ص ٢٨٩.

اتخذوا مظاهر الترف والبهجة هذه تجلدا وليغيظوا بها جموع الشامتين من أهل المدينة الذين اصطفوا على جانبي الطريق ليروهم وهم يخرجون على ستمائة بعير[1]. ولقد ذهبت طائفة من بني النضير الى الشام، وربما كان هؤلاء قد انشقوا على قومهم وآثروا النجاة بأنفسهم كما فعل من قبلهم بنو قينقاع عقب اخراجهم. أما أكثر بني النضير وعلى رأسهم حيي بن أخطب، وسلاّم بن مشكم، وكنانة بن الربيع بن أبي الحقيق، فقد نزلوا بخيبر التي تعتبر أكبر معقل لليهود في جزيرة العرب.

تحريض بني النضير لقريش:

ولم يمكث حيي بن أخطب في خيبر الا يسيرا. إذ لا شك أنه قد تباحث في تلك الأثناء مع زعماء اليهود في خيبر عند ضرورة مهاجمة المدينة، فأشاروا عليه بالدهاب الى قريش أولا فهي تتأهب لحرب النبي فان أخرجها كفته وكفتهم مؤونة القتال وضمنوا النصر باشتراكها في الغزو فسار حيي الى مكة ووجد قريشا قد خرجوا يريدون النبي لموعدهم الذي واعدوه يوم أحد[2]. فأدركهم حيي وهم يأتمرون وقد استقروا على العودة الى مكة بحجة أن العام جديب، وأنّ قريشا لا يصلحها للغزو الا عام خصيب ترعى فيه الشجر وتشرب فيه اللبن. وما كانت هذه الحجة لتكون هي السبب الذي أعاد قريشا وانما أعادها أنها لم تكن حريصة على خوض معركة أخرى مع النبي لا تدري ماذا تكون عاقبتها بعد أن أخذت بثأر بدر يوم أحد وقتلت من المسلمين. كما أن هزيمة بني النضير لا بد أن تعتبر من أهم الأسباب التي دعت زعماء قريش الى تجنب الصدام مع النبي في ذلك الوقت، اذ علموا منها أن حماسة المسلمين مزدادة عقب الانتصار، كما شعروا منها أن النبي يلقى تأييدا قويا في المدينة أضعاف ما كان قبيل أحد وبعدها، والا لما استطاع أن

---

(١) امتاع الأسماع جـ ١ ص ١٨١.

(٢) ابن هشام م ٢ ص ٩٤ وانظر غزوة السويق في الطبري جـ ٢ ص ٢٢٩.

يفعل ببني النضير ما فعله من حصار وجلاء. ولقد كان حيي يريد أن تصحبه قريش لتوها الى المدينة حتى يثأر لبني النضير ويعيدهم الى ديارهم التي اعتبر نفسه مسؤولا عن اخراجهم منها. ولعله قد طمأن قومه بأنهم لا محالة عائدون. أما زعماء قريش فلقد كانوا يرون أن بني النضير وسائر يهود هم أحق الناس بالتصدي لمحاربة النبي اذ أن هزيمة بني النضير هي ثالث هزيمة يلحقها النبي باليهود ولما يأخذوا بثأرهم منه بعد. ويتبين لنا موقف قريش هذا من اسئلتها التي سألتها[1] حييا، اذ سألوه عن قومه، فقال لهم «تركتهم بين خيبر والمدينة يترددون حتى تأتوهم فتسيروا معهم الى محمد وأصحابه» وسألوه عن بني قريظة، فقال: «انهم أقاموا بالمدينة مكرا بمحمد حتى تأتوهم فيميلوا معكم».

ولا يمكن لكلام حيي هذا أن يجوز على دهاة قريش وزعيمهم أبي سفيان الذي وافته فرصة من حيي بن أخطب حين زاره في المدينة من قبل. اذ لم يكن نزول بني النضير في خيبر سرا، كما لم يكن خذلان بني قريظة لهم أمرا لا يعلمه زعيم قريش، وهو الذي كان يهتم بأخبار المدينة وأحداثها. ولقد كان أبو سفيان يمعن في التمنع وحيي ورهطه يمعنون في استرضائه، ومن ذلك أن أبا سفيان سألهم مرة قائلا:[2] «يا معشر يهود أنتم أهل الكتاب الأول والعلم، أخبرونا عما أصبحنا نختلف فيه نحن ومحمد، أديننا خير أم دين محمد؟ فنحن عمار البيت وننحر الكوم، ونسقي الحجيج، ونعبد الأصنام،؟ فقالت يهود: اللهم أنتم أولى بالحق منه، انكم لتعظمون هذا البيت، وتقومون على السقاية، وتنحرون البدن، وتعبدون ما كان يعبد آباؤكم، فأنتم أولى بالحق منه». فأشار القرآن إلى قولهم هذا مقرعا لهم: ﴿**ألم تر إلى الذين أوتوا نصيبا من الكتاب يؤمنون بالجبت والطاغوت، ويقولون للذين كفروا هؤلاء أهدى من الذين آمنوا سبيلا**﴾[3].

---

(١) المغازي ص ٢٩٠.

(٢) امتاع الأسماع جـ ١ ص ٢١٧.

(٣) سورة النساء الآيات ٥١-٥٥.

تجميع حيي القبائل لغزو المدينة:

ولقد استطاع حيي وجماعته بمثل ذلك الأسلوب، اقناع أبي سفيان بأن يتولى قيادة الجيش الذي يقوم بغزو المدينة في العام القادم. ونجد هذا واضحا في شعر الشاعر اليهودي سماك الذي قال في قصيدة له يهاجي شعراء النبي ويتوعدهم[1]:

فان لا أمت نأتكم بالقنا ... وكل حسام معا مرهف
بكفى كمي به يحتمي ... متى يلق قرنا له يتلف
مع القوم صخر وأشياعه ... اذا غاور القوم لم يضعف
كليث بترج حمى غيله ... أخى غابة هاصر أجوف

وأرى أنهم قد أكدوا لأبي سفيان وزعماء قريش في هذه المرحة بأنهم قد اتصلوا بالقبائل العربية المجاورة للمدينة مثل غطفان وبني سليم، ووجدوا منهم حماسة وترحيبا للاشتراك في الغزو. فيحدثنا ابن سعد في طبقاته أنه[2] «لما أجلى رسول الله صلى الله عليه وسلم بني النضير ساروا الى خيبر فخرج نفر من أشرافهم ووجوههم الى مكة فألبوا قريشا ودعوهم الى الخروج الى رسول الله صلى الله عليه وسلم وعاهدوهم وجامعوهم على قتاله ووعدوهم لذلك موعدا، ثم خرجوا من عندهم فأتوا غطفان وسليما ففارقوهم على مثل ذلك» ومن هذا يتضح لنا أنهم قد اتصلوا بهذه القبائل قبيلة إثر قبيلة فأكدوا لكل منها حرص القبائل الأخرى على قتال النبي لما بينها وبينه من ثارات، أو لما عندها في المدينة من أطماع وأنهم انما جاءوا رسلا من قبل تلك القبائل أكثر منهم محرضين ومؤلبين وأنهم ينصحون بهذه القبيلة التي تربطهم بها صلات الحلف أو الصداقة ألا تفوتها فرصة الاشتراك في هذا الغزو لما يرتجى فيه من عز ومغنم. وَهَوَّنوالهـم من شأن النبي في المدينة، وأنه لا طاقة له بمقاومة هذه

---

(١) ابن هشام م/ ٢ ص ١٩٨.

(٢) ابن سعد جـ ٢ القسم الأول ص ٤٧.

القبائل مجتمعة، فهو انما اعتاد أن يلقى أعداءه قبيلة بعد قبيلة. كما هوّلوا لهم من شأن المعارضة في المدينة وأنها ستنقض عليه وعلى من معه حينما تعلم أن جيشا كبيرا من مختلف القبائل قد جاء لمحاربته.

فاستطاع حيي بذلك اخراج جيش ضخم خرجت فيه قريش وأحابيشهم[1] ومن تبعهم من العرب فكانوا أربعة آلاف بقيادة أبي سفيان بن حرب معهم ثلاثمائة فرس وخمسمائة بعير، وخرجت فيه بنو سليم في سبعمائة يقودهم سفيان ابن عبد شمس، وخرج فيه بنو أسد يقودهم طلحة بن خويلد الأسدي، وخرجت فيه فزارة فأوعبت ومعهم ألف بعير يقودهم عيينة بن حصن، وخرجت فيه أشجع وهم أربعمائة يقودهم مسعود بن رخيلة، وخرجت فيه بنو مرة يقودهم الحرث بن عوف[2] وغيرهم من العرب ممن كانوا يطلبون مغنما، ومع هؤلاء خرج يهود بني النضير ومعهم يهود خيبر، وان لم يذكر الرواة عنهم شيئا الا خروج حيي بن أخطب ولا أراه جاء منفردا وانما كان في قومه.

ورغم أن أسلوب حيي بن أخطب في التهويل والتهوين قد أنجح مسعاه في تأليب تلك القبائل وتجميعها، فلقد كان ذلك الأسلوب من أهم أسباب الوهن في ذلك التجمع الكبير. اذ جاءت كل قبيلة مشاركة في الخروج ومعتمدة على غيرها ليقوموا عنها بالقتال، وتقوم هي بتجميع سلاب والغنائم. وذلك ما فات حييا كما فاته أمر آخر أدركه النبي، وهو أن ضخامة الجيش وكثرة قواده وتعدد قبائله كانت من أهم أسباب ضعفه، ولذلك آثر النبي فكرة حفر الخندق[3] حول المدينة على ملاقاة الجيش الغازي ومجالدته، ذلك أن الحصار وما يتبعه من تكاليف في المؤونة، ومن سأم وملل سيحدثان

---

(١) المصدر نفسه.

(٢) المصدر نفسه.

(٣) انظر خبر غزوة الخندق في ابن هشام م/٢ ص ٢١٤-٢٣٢، والمغازي للواقدي ص ٢٩٠-٢٩٧، وابن سعد جـ ١ القسم الأول ص ٤٧-٥٣، وامتاع الأسماع جـ ١ ص ٢١٥-٢٤١، وتاريخ الطبري جـ ٢ ص ٢٣٣-٢٤٥.

بينهم ألوانا من الفرقة والخصام تضعف روحهم وتلحم الأمر بين قادتهم. ولقد كان حفر الخندق هو المفاجأة الأولى التي لاقاهم بها النبي، اذ لما وصلوا وجدوا مداخل المدينة كلها قد حفرت فبهتوا لذلك الصنيع، وخاب ما كان يأمله أكثرهم في أن يفرغوا من الأمر كله في معركة واحدة ثم ينقلبوا غانمين. كما أبان لهم حفر الخندق أن وحدة أهل المدينة خلف النبي متينة قوية على غير ما صوره لهم المحرضون والا ما اتخذها له حصنا يتقي به هجوم أعدائه.

والراجح أن حييا لقي كثيرا من السخط ومن التأنيب والتقريع بل وربما هدده بعض الناس بالانصراف والقفول، فأخذ يؤكد صدق ما حدثهم به من قبل وأن الأمر لا يحتاج لأكثر من حسن التدبير والتنسيق بين الجيش الرابض حول المدينة وبين المعارضة الموجودة في داخلها فيصبح محمد ومن معه بين شقي الرحى. بل الراجح أيضا أن حييا قد اتفق مع بعض خاصته من القوّاد أن يشغلوا له النبي والمسلمين بكل ما يملكون من وسائل الرمي والحصار حتى يتمكن من أن يدبر أمرا لعله قد أخبرهم بطرف منه، وهو التسلل الى بني قريظة.

بنو قريظة[1]

تسلل حيي بن أخطب:

وبينما كان النبي والمسلمون يلاقون الأمرين من مجابهة الحصار المضروب حول المدينة[2] تسلل حيي بن أخطب حتى أتى كعب بن أسد سيد بني قريظة وصاحب عقدهم وعهدهم مع النبي، فلما سمع كعب بحيي بن أخطب أغلق دونه حصنه، تماما كما فعل حيي بأبي سفيان حين جاءه عقب بدر، فاستأذن حيي على كعب فأبى أن يفتح له، فناداه حيي: «يا كعب افتح لي»، فقال كعب: «ويحك يا حيي انك امرؤ مشؤوم، واني قد عاهدت محمدا فلست بناقض ما بيني وبينه، ولم أر منه الا وفاء وصدقا.

فقال حيي: ويحك افتح لي اكلمك.

قال كعب: ما أنا بفاعل.

فقال حيي: والله ان أغلقت دوني الا على جشتك أن آكل معك ومنها،

---

(١) انظر أخبار غزوة بني قريظة في ابن هشام/ م ٢/ ص ٢٣٣-٢٧٣، والمغازي للواقدي ص ٢٩٧-٣٠٠، وامتاع الأسماع جـ ١ ص ٢٤١-٢٥٣، وابن سعد جـ ٢ القسم الأول ص ٥٣-٥٩. وعيون الأثر ص ٦٨-٧٨.

(٢) وقد وصلنا أخبار غزوة بني قريظة بأخبار غزوة الخندق لاتصالها من حيث الأحداث والتاريخ.

فأحفظ الرجل ففتح له. فقال: «ويحك يا كعب جئتك بعز الدهر وببحر طام جئتك بقريش على قادتها وسادتها، وبغطفان على قادتها وسادتها[1] قد عاهدوني وعاقدوني ألا يبرحوا حتى يستأصلوا محمدا ومن معه».

فقال له كعب بن أسد: «جئتني والله بذُلّ الدهر، بجهام قد هراق ماءه يرعد ويبرق ليس فيه شيء، ويحك فدعني ومحمداً وما أنا عليه فلم أر من محمد الا صدقا ووفاء».

فلم يزل حيي بكعب يفتله في الذروة والغارب حتى استجاب له بعد أن أعطاه عهدا وميثاقا لئن رجعت قريش وغطفان ولم يصيبوا محمدا، أن يدخل معه في حصنه حتى يصيبه ما يصيب كعبا فرضي كعب ونقض بنو قريظة ما كان بينهم وبين النبي من عقد وعهد.

ومن الحوار الذي دار بين كعب وحيي نجد أن كعبا كان يخشى على قومه ونفسه من مغبة ما يدعوهم اليه حيي حتى أنه رفض أن يفتح له أو يقابله، وهذا يدل على أمرين أولها خوفه من أن يعلم النبي بأمر اتصاله به فيعتبر ذلك نقضا للعهد ان لم يخبره بما دار بينهما أو يسلمه حييا وذانك أمران لا يستطيع أن يفعلهما كعب ويبقى سيدا في قومه الذين كفاهم حرجا أن أخرج بنو النضير من بينهم فلم يهبوا لنصرتهم. وثاني الأمرين أن كعبا كان يعلم مقدرة حيي وبراعته الفائقة في الاثارة والتحريض والاقناع فخشي أن يوقعه وزعماء قومه بتلك المقدرة على التردي فيما لا يريدون الوقوع فيه. كما يتبين لنا أن كعبا لم يكن يثق في جيش الأحزاب رغم كثرته وعدته فوصفه بأنه «جهام قد هراق ماءه يرعد ويبرق ليس فيه شيء» ولكن حييا استطاع أن يدرك مواطن الضعف في كعب فأخذ يأتيه من قبلها ولعله كان يهوّل من قوة جيش الأحزاب وتصميم قادته على اقتحام المدينة ويحذره مغبة عدم التعاون معهم والمعرّة التي ستثيبه وقومه بين بني جلدتهم ونحلتهم من يهود اذا خذلوا قومهم

(١) انظر امتاع الأسماع جـ ١ ص ٢٢٥ وتاريخ الطبري جـ ٢ ص ٢٣٧.

ووقفوا بجانب عدوّهم. بل لعله ذكره خذلان بين قريظة لبني النضير وما ألحقه بكعب من عار وشنار وبين سائر يهود، وأن هذه فرصة كعب في أن يقوم ما اقترفه وأن يستعيد ما افتقده فيجب أن لا يدعها تفلت من بين يديه. وربما خوفه عاقبة التعاون مع النبي والمسلمين وأنهم قد ينقلبون عليهم في أية لحظة فيخرجونهم كما أخرجوا بني النضير ومن قبلهم بني فينقاع فيشمت بهم الناس. وأنه من الخير لهم أن يسبقوا بالحرب قبل أن يسبقوا بها. وربما ذكر له ما سيؤول اليه موقف بني قريظة بعد انتصار الأحزاب على النبي اذ أن زعماء العرب سيعتبرونهم بمنزلة المحاربين لهم ولن يقبلوا فيهم شفاعة حيي، ومن معه من يهود.

وجلي أن كعبا قد أخذ وأنه قد طلب من حيي ضمانا على تصميم الأحزاب وأنهم لن يخذلوه وقومه فينقلبوا الى أهلهم ويدعوه يواجه حسابا عسيرا مع النبي والمسلمين. فعاهده حيي على أن يبقى معه رهينة وربما تعهد له بأن يأتيه من كل قبيلة برهائن من أبنائها يبقون عنده يصيبهم ما يصيبه، فأفحم كعب ورضي بما قدم له حيي من تأكيد وأرسل بنو قريظة أبا لبابة القرظي[1] مع حيي بن أخطب ليحالف عنهم المشركين على أن يدخلوا معهم سبعين رجلا من أشرافهم وفرسانهم ليكونوا معهم في الحصن وأن يؤجلوا بني قريظة عشر ليال حتى يجمعوا سلاحهم ويعدوا أنفسهم على أن يقاتل المشركون النبي في تلك الأيام العشر قتالا شديدا حتى يشغلوه عما يدور وراء ظهره في المدينة. فتم الاتفاق على ذلك وبدأ المشركون في تنفيذ مهمتهم بتشديد القتال وأخذ بنو قريظة يعدون أنفسهم للانتقاض.

ونلاحظ أن اشتراط بني قريظة اعطاءهم الرهائن دليل على وجود الريبة في نفوسهم، ولقد استطاع النبي أن يستخدم هذه الريبة استخداما بارعا في قصة التخذيل. ومما جعل بني قريظة رغم ريبتهم يقبلون الاتفاق مع الغزاة هو أنهم

---

(١) المغازي للواقدي ص ٢٩٢.

آثروا أول الأمر أن يقفوا على الحياد ـ اذ لم يرد في الأخبار أنهم اشتركوا في حفر الخندق أو في حراسته الا ما كان من أمر اعارتهم بعض المكاتل وأدوات الحفر للمسلمين[1] وذلك جهد دون ما ينبغي أن يقوم به حليف مع حلفائه وهم يحاصرون في عقر دارهم. وربما كان لدعاية حيي في المدينة أثر كبير في اتخاذ بني قريظة لموقف الحياد ذلك، بل أن بني قريظة كانوا مضطربين في تقدير الموقف فلم يكونوا يدرون لمن ستكون الغلبة فآثروا الابتعاد والبقاء في حصونهم، فإن غلب النبي فهم متمسكون بعهدهم معه ولئن سألهم فسيتعللون بأنه ما دعاهم لقتال، ولو قد دعاهم لكانوا استجابوا له. وان كانت الغلبة للأحزاب فسيكون عذرهم أنهم لم يشتركوا في القتال ولو لم يكونوا يؤيدونهم لاشتركوا في مقاومتهم مع النبي والمسلمين. ولكن حييا أفسد عليهم خطتهم بتسلله اليهم ودعوته الصريحة لهم بالانحياز الى جانب الغزاة. والراجح أن هذا لم يكن أول اتصال تم بينهم وبين حيي وانما سبقته اتصالات بهم عن طريق بعض خاصته يهوّل لهم فيها أمر تجمع الأحزاب ويدعوهم فيها للانتقاض في صيغ من العتاب والنصح والوعد والوعيد مما حدا بهم أن يروا أن موقف الحياد أسلم من كلا الموقفين الآخرين.

ولعل النبي أحس شيئا من ذلك الذي كان دائرا بين بني قريظة والأحزاب فلم يدعهم للاشتراك في القتال أو الحفر وقنع منهم بموقفهم الذي ارتضوه حتى لا يستثيرهم ضده أو يكلفهم بما لا يريدون فيجعل منهم عدوا له داخل المدينة بينما أعداؤه يحاصرونه خارجها. ولكن النبي لم يغفل أن يضع النساء والأطفال والزمنى والشيوخ في حصون المسلمين مثل حصن حسان بن ثابت[2]، ولعله كان يخشى عليهم من انقضاض بني قريظة كما كان يخشى عليهم من اقتحام جيش الأحزاب.

وأخذ بنو قريظة يتحرشون. بحصون المسلمين وفيها نساؤهم وأطفالهم حتى

---

(١) امتاع الأسماع جـ ١ ص ٢٢٠.

(٢) ابن هشام/ م ٢ ص ٢٢٨.

أن صفية بنت عبد المطلب قتلت واحدا من بني قريظة عندما أخذ يطوف بسلاحه حول الحصن الذي كانت فيه[1]. فلما ترامت هذه الأخبار الى المسلمين اشتد خوفهم حتى ظنوا كل الظن ونجم النفاق في بعض المنافقين حتى قال بعضهم[2]: كان محمد يعدنا أن نأكل كنوز كسرى وقيصر وأحدنا لا يقدر أن يذهب الى الغائط» وأصبح خوف الناس من بني قريظة أشد من خوفهم من المشركين. ولم يكن النبي ليترك الأمور تسير على ما تتجه اليه فحاول أن يسترضي بني قريظة ويستبقيهم على عهدهم معه ومن ذلك أنه أرسل اليهم وفدًا[3] يتكون من سعد بن معاذ وعبد الله بن رواحة وخوات بن جبير ونلاحظ أن اثنين منهما من الأوس حلفاء بني قريظة وهما سعد بن معاذ وهو زعيم الأوس وخوات بن جبير[4] أما عبد الله بن رواحة فهو من نقباء الخزرج. وأرى أن النبي قد أرسله ليثبت لبني قـريظـة وحـدة الأوس والخزرج وراءه حتى لا يطمعوا في الفرقة بينهما، أو يطمعوا في الغدر بوفده ان كانوا من قبيلة واحدة، ولقد قال النبي لوفده: ائتوهم فأخبروهم أنه قد بلغنا عنكم أنكم نقضتم الحلف وسلوهم الموادعة، وذكروهم الله والعهد، فحسبنا ما قد أتانا[5]» وواضح من هذا أن النبي لم يكن يريد أن يحارب في جبهتين، وأنه كان حريصا على موادعة بني قريظة، فلما ذهب وفده اليهم ليلا وجدوهم جلوسا في ضفة الباب فاستفتحوا ففتح لهم، فدخلوا عليهم فبلغوهم الذي أرسلوا به فردوا عليهم»: انكم قد كسرتم جناحنا فان شئتم فأعيدوه الينا والا فنحن براء منكم فانما انتم كاذبون» ويعنون بجناحهم المكسور بني النضير. فقال لهم سعد بن معاذ ـ وهو حليف القوم: يا معشر بني قريظة أني أخشى

---

(١) المصدر نفسه.
(٢) تاريخ الطبري جـ ٢ ص ٢٣٨.
(٣) المغازي للواقدي ص ٢٩٤.
(٤) الاصابة جـ ١ ص ٩٤٠.
(٥) المغازي للواقدي ص ٢٩٤.

عليكم مثل ما لقيت بنو النضير وأكثر». فردوا عليه: «ان أكلت فابدأ بابنك فقال لهم سعد بن معاذ: ان من الفداء ما هو خير من ذلك» ثم قال: اللهم لا تمتني حتى تشفي صدري من بني قريظة». فوقعت اليهود حينئذ في النبي يسبونه ويعيرونه بالكذب، وقالوا «أرسل الينا محمد يسألنا الموادعة والصلح حين التقت حلق البطان، كلا والذي يحلفون به لنمدن عليك عداوتنا ولنتأزر بأخواننا»[1] فخرج وفد النبي وقد سمعوا أذى كثيرا.

فلما انتهوا الى النبي قال:[2] ما وراءكم؟ قالوا: يا نبي الله أتيناك من عند شرار الناس، والله ما رأينا ولا سمعنا منذ فارقناك الا الذي نكره «فأخبروه الخبر كنحو الذي سمعوا. فقال لهم: اكتموا خبركم، فانما الحرب خدعة. فلما انتهى النبي الى المسلمين كبر فكبروا ففزع المشركون وقالوا: لقد أتى محمدا وأصحابه أمر يسرهم». وقال أصحابه «يا نبي الله ما بلغك. فبلغ الى أصحابه الثلاثة فقال: حدثوا اخوانكم، فقام عبد الله بن رواحة فقال: هؤلاء حلفاؤكم من اليهود قد زعموا أنهم بعثوا الى المشركين ليبعثوا اليهم سبعين رجلا من أشرافهم وفرسانهم فاذا دخلوا حصنهم ضربوا أعناقهم ثم خرجوا الينا فأعانونا على المشركين فنضربهم ان شاء الله حتى نصبح». وكان في صف النبي عين للمشركين وهو نعيم بن مسعود الأشجعي الغطفاني فسمع الذي سمع والمشركون ينتظرونه فأتاهم، فقالوا: «ما وراءك يا نعيم، وما هذا الصوت الذي في عسكر محمد؟ فقال «اتيتكم من ذاك باليقين، كدتم أن تهلكوا سبعين من أشرافكم». ففزعوا وقالوا: «ما ذاك لا أبالك؟» قال: أرسل محمد ثلاثة رهط الى بني قريظة لينظرهم معه أو معكم، فأتته رسلك من عندهم فأخبروه وأنا أسمع أنهم قد صالحوكم على أن تبعثوا اليهم سبعين رجلا من فرسانكم وسادتكم فاذا ادخلوا حصنهم ضربوا أعناقهم، ثم أتوا محمدا فأعانوه عليكم. قال أبو سفيان: «نغمة حق واللات والعزى». فقال عند ذلك« غدر اليهود

---

(١) المصدر نفسه ص ٢٩٥.

(٢) المصدر نفسه.

لعنهم الله » وقال السبعون: « لا والله لا ندخل حصنهم أبدا ».

ومما ذكره الواقدي وأثبتناه ومما رواه ابن اسحق[1] بأن النبي أرسل سعد بن معاذ وسعد بن عبادة الى بني النضير نرى أنه قد أرسل أكثر من وفد الى بني قريظة وذلك يدل على مدى حرصه على استبقاء بني قريظة في حلفه في تلك الظروف القاسية حتى يحتفظ بولاء المدينة ووحدة أهلها وراءه فيجبه بها المهاجين، بيد أن بني قريظة فسروا دعوته لهم بأنها اعتراف منه بضعف موقفه إزاءهم وبازاء أعدائه ورجحوا أن الغزاة سينتصرون فآثروا الوقوف بجانب الكفة الرّاجحة. ولم يقابلوا دعوته الا بالسخرية والاستهزاء والتمني عليه مثل اشتراطهم عليه عودة بني النضير، ولا أحسبهم كانوا جادين في ذلك، ولئن كانوا جادين فلقد كان أحرى بهم أن يعلموا أن النبي لن ينظر في شرط اعادة بني النضير لما يكتنف تنفيذه من استحالة عملية بعد أن قسمت أموالهم فيئا على المسلمين، ولما يتضمنه الشرط منـه دلالـة على الهزيمة أمـام بني قريظة لن يرضاها المسلمون وخاصة الأوس والخزرج والذين لبثوا ردحا من الزمان في جاهليتهم واسلامهم وهم ينظرون الى بني قريظة نظرتهم الى التابع لا المتبوع.

فلما استيقن النبي أن بني قريظة لن يعدلوا عن ميلهم نحو الغزاة وقد سفروا به أقلع عن التفكير في استعادتهم واتجه الى الايقاع بينهم وبين الاحزاب. ويبدو أن النبي كان يضع هذه الخطة بديلا لتلك منذ البداية، خاصة بعد أن اتضح له مدى وهن الثقة والتعاون بين الأحزاب حين وافقه قائدا غطفان على العودة الى ديارهما ان جعل لهما ثلث ثمار المدينة لمدة عام واحد، وقد كاد يتم ذلك لولا رفض زعيمي الأوس والخزرج[2]. بل ومن دلائل وضعه لخطة الايقاع بديلا لخطة الاستعادة أنه كان يجعل نتائج

---

(١) تاريخ الطبري جـ ٢ ص ٢٣٨.

(٢) امتاع الأسماع جـ ١ ص ٢٣٥-٢٣٦.

اتصالات وفوده ببني قريظة سرا حتى على أصحابه وأتباعه من المسلمين لئلا يفت في عضدهم من ناحية وليعمي الأمور على أعدائه من الناحية الأخرى.

وسواء صحت رواية الواقدي بأن عبد الله بن رواحة هو الذي قص القصة التي أدت الى الوقيعة بين بني قريظة والاحزاب[1] أو أن نعيا بن مسعود هو الذي قام بالتخذيل بعد أن أشار عليه به الرسول ـ كما يروي ابن اسحق[2]، والروايتان يمكن أن تكونا متكاملتين، وان كانت رواية الواقدي عندي أشبه بالصواب ان كان لا بد من الاختيار بينهما. ومهما يكن من شيء فان خطة الوقيعة قد نجحت فلقد رفضت قريش وغطفان أن تسلما رهائنهما الى بني قريظة، ورفض بنو قريظة أن يحاربوا من غير ضمان وساعدت عوامل الطبيعة، وخطة حفر الخندق، وجهود المؤمنين بالنبي والعاطفين عليه في صفوف أعدائه مثل بني هاشم، وربما اتصالات النبي بالأطراف المحاربة له، كل ذلك ساعد في توهين الثقة بين الأحزاب، وبينما هم في ذلك هبت العاصفة في ليلة شاتية[3] فجعلت اقامتهم أمرا مستحيلا ورحل جيشهم على اثرها، بعد أن أقام نحوا من شهر يحاصر المدينة، وخلف وراءه بني قريظة ليواجهوا مع النبي مصيرهم المحتوم.

حصار بني قريظة:

ولم يكد النبي يتأكد من رحيل الجيش الضارب حول المدينة، حتى أمر بلالا فأذن في الناس[4]: « من كان سامعا مطيعا فلا يصلين العصر الا في بني قريظة » فسار المسلمون اليهم وحاصروهم في حصنهم وتراموا بالنبل والحجارة.

---

(١) المغازي ص ٢٩٥.

(٢) ابن هشام/ م ٢ ص ٢٢٩.

(٣) تاريخ الطبري جـ ٢ ص ٢٤٢-٢٤٣.

(٤) ابن سعد جـ ٢ القسم الأول ص ٥٣.

ودام الحصار خمسا وعشرين ليلة حتى جهدهم فأرسلوا رسولا منهم الى النبي[١] على أن ينزلوا على ما نزلت عليه بنو النضير، له الأموال والحلقة ويحقن دماءهم ويخرجون من المدينة بالنساء والذراري، ولهم ما حملت الابل، فأبى النبي الا أن ينزلوا على حكمه ».

ولقد كان واضحا منذ البداية أن بني قريظة لم يكونوا يتوقعون من النبي غير القتل والسبي وذلك لأن موقفهم الذي وقفوه أيام الحصار هو العداء الصريح والانحياز الى جانب الأعداء في أحلك الفترات التي مر بها المسلمون. ولقد أثر ذلك في نفوس المسلمين وأحدث فيها مرارة شديدة لما رأوه فيه من غدر ونبذ للعهد، ولما ذاقوه منه من قلق على أنفسهم وعلى أهلهم الذين خلفوهم وراءهم في المدينة حتى مرّت عليهم الأيام الأخيرة وخوفهم من بني قريظة أشد من خوفهم من أعدائهم المحاصرين لهم[٢] ولما تأكد للمسلمين، خاصة أولئك الذين أوفدهم النبي لمفاوضتهم، أن بني قريظة لو ظفروا بهم لما رحموهم وأنهم ليتحرقون لذلك الظفر وهم شامتون.

ولقد أدرك كعب بن أسد بني قريظة ذلك حتى أنه حين عاد اليهم وفدهم برفض النبي لنزولهم على ما نزلت عليه بنو النضير، قال كعب لقومه[٣]: يا معشر يهود، انه قد نزل بكم من الأمر ما ترون، واني عارض عليكم خلالا ثلاثا فخذوا أيها شئتم. قالوا « وما هن؟ قال « نتابع هذا الرجل فتأمنوا على دمائكم وأموالكم وأبنائكم ونسائكم. فقالوا « لا نفارق حكم التوراة ولا نستبدل به غيره، قال فاذا أبيتم هذه علي فهلم فلنقتل أبناءنا ونساءنا ثم نخرج الى محمد وأصحابه رجالا مصلتين بالسيوف ولم نترك وراءنا ثقلا يهمنا، فان نهلك نهلك ولم نترك وراءنا شيئا نخشى عليه، وان نظهر فلعمري لنجدن النساء والأبناء. فقالوا « نقتل هؤلاء المساكين فما خير العيش

---

(١) امتاع الأسماع جـ ١ ص ٢٤٣.

(٢) تاريخ الطبري جـ ٢ ص ٢٣٨.

(٣) المصدر نفسه ص ٢٤٦-٢٤٧.

بعدهم؟ قال: فاذا أبيتم على هذه، فان الليلة سبت وأنه عسى أن يكون محمد وأصحابه قد أمنوا فيها، فانزلوا لعلنا نصيب من محمد وأصحابه غرة. قالوا: نفسد سبتنا ونحدث فيه ما لم يكن أحدث فيه من كان قبلنا الا من قد علمت فأصابه من المسخ ما لم يخف عليك. فقال: ما بات رجل منكم منذ ولدته أمه ليلة واحدة من الدهر حازما».

وهذا القول الحازم من كعب شبيه بما ورد في الأخبار أنه قاله لقومه في الجاهلية في حرب بعاث[1]، ولئن قيل انهم أطاعوه في تلك فتركوا أبناءهم يقتلون فأنهم لم يطيعوه هذه المرة وآثروا أن يبحثوا لهم عن مخرج آخر يحفظ عليهم دماءهم بعد أن تهددها الهلاك. ويبدو أنهم فكروا في أصدقائهم من الأوس عسى أن يجدوا عندهم عونا فأرسلوا الى النبي - أن ابعث الينا أبا لبابة بن عبد المنذر[2] «وكان أبو لبابة لهم صديقا نصيحا منذ الجاهلية، فلما رأوه قام اليه الرجال وجهش اليه النساء والصبيان يبكون في وجهه فرق لهم. وقالوا: يا أبا لبابة أترى أن تنزل على حكم محمد؟ قال: نعم. وأشار بيده الى حلقه انه الذبح. ثم نزل وخرج والناس ينتظرونه. وقد ندم على ما كان منه فمر على وجهه حتى ارتبط في المسجد الى سارية، وقال: لا أبرح حتى يتوب الله عليّ». وموقف أبي لبابة هذا يدل على أنه كان يعلم بما يريده النبي والمسلمون ببني قريظة، ورغم عرفانه لذلك وتأثره لحالهم فانه لم يعدهم نصرا ولم ينصحهم بغير الإذعان، واشارته لحلقه - واعتباره لذلك خيانة للنبي تدلنا على التحول الكبير الذي طرأ على نفوس أخلص خلصاء اليهود من العرب من جرّاء دخولهم في الاسلام، وكيف أنهم آثروا دينهم الجديد ونبيهم على صداقاتهم وأحلافهم الجاهلية، وذلك ما غاب عن قبائل اليهود ادراكه منذ البداية، وكانت كل قبيلة منهم لا تتبينه تبينا تاما الا في نهاية مطافها، ولعلهم

---

(١) انظر المهودي جـ ١ ص ١٥٤ وص ٢٦ من هذه الرسالة.

(٢) ابن هشام/ م ٢ ص ٢٣٦-٢٣٧.

كانوا يستمعون لما يقوله لهم بعض حلفائهم من المنافقين فيجد هوى في أنفسهم ويحسبونه رأي الآخرين.

ولقد استيقن بنو قريظة ما ينتظرهم بعد مقابلتهم لأبي لبابة فاشتد الخلاف بينهم، ولكن بطونا منهم قد آثرت أن تحقن دماءها فتدخل في الاسلام قبل فوات الأوان. فنزل ثعلبة بن سعية، وأسيد بن سعية، وأسد بن عبيد، فأسلموا وأمنوا على أنفسهم وأهليهم وأموالهم. ويروي أن هؤلاء من بني هدل وهم حلفاء بني قريظة من اليهود[1]. وهذا يدل على أن تركيب القبيلة اليهودية كان مشابها لتركيب القبيلة العربية، فهي تضم بجانب صفوة أبنائها بطونا من حلفائها يحملون اسمها ولكنهم يحتفظون بخصائصهم ويعتبرون في المرتبة الثانية. وكما نزل بعض البطون فقد نزل بعض الأفراد، فيروى أن عمرو بن سعدي القرظي[2] قد نزل - وكان أبى أن يدخل مع بني قريظة في غدرهم بالنبي، وقال: لا أغدر بمحمد أبدا، فمر بعد نزوله - وربما كانت معه أسرته، بحرس الرسول وعليها محمد بن مسلمة تلك الليلة، فلما رآه قال: من هذا؟ قال: عمرو بن سعدى. فقال محمد ابن مسلمة: اللهم لا تحرمني عثرات الكرام، ثم خلى سبيله، فخرج على وجهه حتى بات في مسجد الرسول بالمدينة تلك الليلة ثم ذهب فلا يدري أين ذهب، فذكر شأنه للرسول، فقال: ذاك رجل نجاه الله بوفائه. ومحمد بن مسلمة من المقربين عند الرسول من الأوس ولقد أوكل اليه مهاما جساما تتصل بحلفائهم اليهود مثل مقتل كعب بن الأشرف وجلاء بني النضير مما يجعله أكثر الناس معرفة لسياسة النبي ازاء اليهود، فيعتبر تصرفه سياسة مقررة في التسامح مع الذين ظلوا يحتفظون بعهدهم والتمييز بينهم واعطائهم فرصة الفرار اذا رغبوا فيه تمييزا لهم على من نقضوا العهد.

---

(١) ابن هشام/ م ٢ ص ٢٣٨.

(٢) المصدر نفسه ص ٢٣٨-٢٣٩..

ورئاسة محمد بن مسلمة على الحرس تشير مع ذلك الى معنى آخر وهو أن النبي قد اتبع مع بني قريظة نفس السياسة الناجحة التي اتبعها من قبل مع رصفائهم من يهود. فكما ولى أمر بني قينقاع لرجال من الخزرج، وكما ولى أمر بني النضير لرجال من الأوس كذلك أوكل قيادة محاربة بني قريظة لرجال من الأوس تربطهم باليهود صلة الحلف والعهد، وتربطهم بالأوس مكانة الزعامة والقيادة في الجاهلية والاسلام، وتربطهم بالرسول صلة الصحبة والثقة في ولائهم له واخلاصهم لدينهم. ولقد كان النبي يضع نصب عينيه علاقات الجاهلية وأحلافها وما تبقى لها من علائق في النفوس فلا يسقطها من حسابه وانما يعالجها في حكمة وتبصر. فهو بمثل ذلك الصنيع يرضي حلفاء اليهود من العرب من خلص اسلامه منهم ومن بقي في نفسه شيء من جاهليـة، فيصون بذلك وحدة صفوفه ولا يدع مجالا للفرقة والانقسام، ويضمن تنفيذ ما يرمي اليه في دقة واحكام دون أن تكون هنالك ثغرة ينفذ منها أعداؤه المحاربون أو المتربصون.

تحكيم سعد بن معاذ:

ولقد كان تحكيم سعد ذروة هذه السياسة، وذلك أنه لما أصبح بنو قريظة ذات يوم وأعلنوا قبولهم للنزول على حكم النبي، أمر النبي بهم فكتفوا، فتواثبت الأوس فقالوا «يا رسول الله انهم موالينا دون الخزرج، وقد فعلت في موالي الخزرج بالأمس ما قد علمت، يشيرون الى أنه كان قد وهبهم لابن أبي[1]، فقال النبي: ألا ترضون يا معشر الأوس أن يحكم فيهم رجل منكم؟ قالوا: بلى. قال: فذاك الى سعد بن معاذ، وكان سعد بن معاذ مع الجرحى في خيمة عند مسجد النبي[2] وبه جرح خطير من سهم أصابه أيام الخندق فخرجت الأوس وحملوه على حمار، وجعلوا وهم حوله يقولون: «يا أبا

(١) انظر خبر بني قينقاع في ص ٨٠ من هذه الرسالة.

(٢) ابن هشام/ م ٢ ص ٢٣٩.

عمرو، ان رسول الله قد ولآك أمر مواليك لتحسن فيهم فأحسن، فقد رأيت ابن أبي وما صنع في حلفائه». فلما أكثروا عليه قال: قد أنى لسعد بن معاذ ألا تأخذه في الله لومة لائم. فرجع بعض من كان معه الى دار بني عبد الأشهل فنعى لهم رجال بني قريظة، قبل أن يحكم فيهم سعد. فلما انتهى سعد الى النبي والمسلمين قال لهم النبي: «قوموا الى سيدكم. فقاموا اليه، فقالوا: يا أبا عمرو ان رسول الله قد ولآك مواليك لتحكم فيهم، فقال سعد: عليكم بذلك عهد الله وميثاقه إن الحكم فيها ما حكمت؟ قالوا: نعم، قال! وعلى من ههنا؟ في الناحية التي فيها النبي، وهو معرض عن النبي اجلالا له، فقال النبي: نعم. قال سعد: فاني أحكم فيهم بأن تقتل الرجال وتقسم الذراري والنساء». فقال النبي: حكمت فيهم بحكم الله من فوق سبعة أرقعة».

ونحن لا نعلم على وجه اليقين والتحديد لماذا رضي بنو قريظة النزول على حكم النبي. أكان ذلك الرضى نتيجة لشدة الحصار ونفاذ المؤونة والطعام، أم كان نتيجة لشدة الفرقة والانقسام، أم طمعا في أن يتدخل الأوس لانقاذهم اذا نزلوا طائعين قبل أن تقتحم عليهم الحصون. ولكنا ندرك أو نرى أننا نستطيع أن ندرك لماذا تواثبت الأوس، ولماذا اختار النبي سعد بن معاذ فقبلته الأوس، وما مغزى ذلك الحكم الذي أصدره سعد ووصفه النبي بأنه حكم الله.

أما الذين تواثبوا من الأوس فهم قوم كان ولاؤهم لأحلافهم أشد من ولائهم لعقيدتهم الجديدة، ولعلهم قد استبد بهم الجزع لما سيصيب اصدقاءهم من القتل فآثروا أن يستنقذوهم ورأوا أن يعامل بنو قريظة كما عومل بنو قينقاع فيطلق اسارهم بعد أن أوثق كتافهم للقتل. ولقد نسوا في غمرة الأشفاق والحمية أن ما اقترفه بنو قريظة أعظم وأكبر. اذ أن بني قينقاع لم يحاربوا النبي الا بعد أن هزم أعداءه في بدر وعاد الى المدينة بينما نقض بنو قريظ عهده بعد أن أمنهم على ظهره وولي وجهه لمحاربة محاصريه فاتفقوا معهم على الغدر به. كما فاتهم أن سلطة النبي قد قويت في المدينة أضعاف ما

كانت عليه في تلك الأيام، فلم يعد ايمان الناس به يسمح لأحد أن يدخل يده في جيب درعه كما فعل ابن أبي من قبل ليثنيه عن تنفيذ ما اعتزم. ولئن كان النبي قد رأى أن القتل هو جزاء بني قينقاع ولكنه عدل عنه درءا لما يمكن أن ينجم عنه من شقاق ولمّا تزل لابن أبي والمنافقين واليهود مكانة يحسب حسابها في المدينة فانه حري أن يرى قتل بني قريظة أوجب لعظم ما اجترموا وهو قادر على تنفيذ ما يريد بعد سنوات تقلص فيها أعداؤه وسمقت فيها دعوته. ويبدو أن تلك الفئات المعترضة لم تكن أكثر الأوس فقد روي أن سعد بن عبادة والحباب بن المنذر (وهما من زعماء الخزرج) قالا للنبي[1]: يا رسول الله ان الأوس قد كرهت قتل بني قريظة لمكان حلفهم، فقال سعد بن معاذ: ما كرهه من الأوس أحد فيه خير، فمن كرهه فلا أرضاه. فقال أسيد بن حضير للنبي حين سمع هذا الكلام: يا رسول الله ـ لا تبقين دار من دور الأوس الا فرقتهم فيها. وصدور هذه النصيحة من زعيم من زعماء الأوس وتنفيذها يدلان على ضعف تلك المعارضة التي هي أقرب الى الاشفاق منها الى الاعتراض.

أما اختيار النبي لسعد بن معاذ فهو أعلى مراحل سياسته التي درج عليها مع اليهود في تولية أمرهم حلفاءهم، اذ كان النبي يكتفي في المرات السابقة بأن يصدر الحكم ثم يولي سيدا من حلفاء القبيلة أمر التنفيذ، أما في هذه المرة فقد اختار أكبر سادة القبيلة والرجل الأول فيها وجعله قاضيا يحكم في أمر حلفائه، وأعلن تأييده لما يحكم به. ولقد كان النبي يقدر الصعوبة التي سيجدها في تنفيذ ذلك العقاب الشديد كما كان يقدر عواقب أي تذمر قد ينتج من جرائه أو يثيره بعض المندسين من المنافقين أمثال عبدالله بن أبي، فرأى أن يمضي في الأمر بمرونة شديدة تتناسب ودقة الموقف. واختياره لسعد بن معاذ فيه إرضاء للأوس كما فيه ارضاء للنبي اذ أن سعدا كان أكثر

(١) امتاع الأسماع جـ ١ ص ٢٤٨.

الأوس ادراكا للموقف باخطاره وأسراره ولما صنعه بنو قريظة وما يستحقونه من جزاء.

تنفيذ الحكم:

وبعد حكم سعد بن معاذ استنزل بنو قريظة فحبسوا في دار لاحدى نساء الخزرج[1]، وخرج النبي الى سوق المدينة فخندق بها الخنادق، ثم بعث اليهم فضربت أعناقهم فيها، وعددهم ستمائة أو سبعمائة والمكثر لهم يقول: كانوا من الثمانمائة الى التسعمائة[2]. ويبدو أن بعضهم لم يكن يصدق أنهم يساقون الى الموت فسألوا كعب بن أسد عما يراد بهم فأجابهم: في كل موطن لا تعقلون، ألا ترون الداعي لا ينزع وأنه من ذهب به منكم لا يرجع. هو والله القتل. فلقد كان كعب مدركا كبر الجرم وعظم العقاب وهو يمتلىء غيظا على قومه الذين أوردوه وأوردوا أنفسهم الهلاك. ولقد ضرب النبي عنق كعب بن أسد بين يديه، وجيء بعده بحيي بن أخطب وكان قد بقي مع بني قريظة وفاء لوعده لهم[3]، وكانت على حيي حلة قد شققها من كل ناحية لئلا يسلبها، ويداه مجموعتان الى عنقه بحبل، فلما نظر الى النبي قال: أما والله ما لمت نفسي في عداوتك ولكنه من يخذل الله يخذل». ثم أقبل على الناس فقال: «أيها الناس، لا بأس بأمر الله كتاب الله وقدره وملحمة قد كتبت على بني اسرائيل». ثم جلس فضربت عنقه. وهكذا عاش حيي عنيفا في خصومته للرسول حتى النهاية.

وكما كان النبي حريصا على تنفيذ الحكم في بني قريظة فقد حرص أيضا ألا ينفذ بصورة توحي بالتشفي والانتقام ومن ذلك ما ورد أنه جيء[4] بعزال

---

(١) الروض الأنف جـ/ ٢ ص ١٩٨ ـ وامتاع الأسماع جـ ١ ص ٢٤٧.

(٢) ابن هشام/ م ٢ ص ٢٤١.

(٣) المصدر نفسه.

(٤) امتاع الأسماع جـ ١ ص ٢٤٣.

ابن شمويل ونباشي بن قيس لتضرب أعناقها، وقد جاذب نباش الذي جاء به حتى قاتله ودق أنفه فأرعفه، فقال النبي للذي جاء به: لم صنعت به هذا، أما كان السيف كفاية؟ ثم قال: احسنوا إسارهم وقيلوهم واسقوهم، لا تجمعوا عليهم حر الشمس وحر السلاح. وكان ذلك اليوم يوما صائفا فقيلوهم وسقوهم وأطعموهم، فلما أبردوا راح النبي فقتل من بقي منهم. وكان يقتل كل من أنبت منهم، اذ أن هؤلاء هم القادرون على حمل السلاح. وقد ترك من القتل من لم ينبتوا ومن شك فيه منهم نظر الى مؤتزره حتى يتحقق ان كان ممن ينطبق عليهم حكم القتل أو السباء[1]. ولم يقتل من النساء الا امرأة واحدة تدعى بنانة[2] امرأة الحكم القرظي، وسبب قتلها أنها قتلت رجلا من المسلمين، بأن ألقت عليه رحى من حصن الزبير بن باطا أيام الحصار.

أما الزبير بن باطا صاحب الحصن، وهو أحد بني قريظة، فقد جاء في شأنه ما يفيد أن النبي كان مستعدا لأن يعفو عن من يبيح العرف العفو عنهم. اذ روي[3] أن ثابت بن قيس، أحد رجالات الأنصار جاء الى الزبير بن باطا من شيوخ بني قريظة وكان الزبير قد من عليه يوم بعاث وجز ناصيته، فقال ثابت للزبير: هل تعرفني؟ فقال: وهل يجهل مثلي مثلك. قال: اني أردت أن أجزيك بيدك عندي. قال: ان الكريم يجزي الكريم. ثم أتى ثابت النبي فقال: يا رسول الله، قد كانت للزبير عندي يد وله علي منة، وقد أحببت أن أجزيه بها، فهب لي دمه. فقال النبي: هو لك. فأتاه فقال: ان رسول الله قد وهب لي دمك فهو لك. فقال ثابت: شيخ كبير لا أهل له ولا ولد فما يصنع بالحياة فأتى ثابت النبي فقال: يا رسول الله أهله وولده؟ قال: هم لك. فأتاه فقال: ان رسول الله قد أعطاني امرأتك وولدك فهم لك. قال: أهل بيت بالحجاز لا مال لهم، فما بقاؤهم؟ فأتى ثابت النبي فقال: يا رسول

(١) المصدر نفسه ص ٢٤٩.

(٢) المصدر نفسه.

(٣) ابن هشام/ م ٢ ص ٢٤٢.

الله ماله؟ قال: هو لك فأتاه فقال: ان رسول الله قد أعطاني مالك فهو لك. فقال الزبير: ما فعل الذي كأن وجهه مرآة صينية تتراءى فيه عذارى الحي، كعب بن أسد؟ قال، قتل. قال: فما فعل سيد الحاضر والبادي حيي بن أخطب؟ قال: قتل. قال: فما فعل مقدمتنا اذا شددنا وحاميتنا اذا كررنا عزال بن شمويل؟ قال: قتل. قال: فما فعل المجلسان - يعني بني كعب بن قريظة، وبني عمرو بن قريظة؟ قال. ذهبوا قتلوا، قال: فاني أسألك بيدي عندك يا ثابت الا ألحقتني بالقوم، فوالله ما في العيش بعد هؤلاء من خير. فضرب الزبير بن العوام عنقه، وبقي أهله وولده مع آل ثابت بن قيس».

ورغم موقف الزبير بن باطا الذي يدل على فروسية عالية اذ أصر أن يلحق بأصدقائه من القادة الذين قتلوا الا أنه قد حصل على استثناء لأهله وماله من السبي. ولا أستبعد أن كثيرا من الأوس قد ذهبوا الى الرسول ليستنقذوا أصدقاء لهم من بني قريظة فوهبهم الرسول لهم. وربما خصت قصة الزبير بن باطا لطرافتها ولأن صاحبها قد أبى الحياة بعد أن وهبت له. وكما تشير قصة الزبير هذه الى أن بعض رجال الأنصار قد تشفعوا في أصدقاء لهم، فكذلك نجد قصة أخرى تشير أن نساء قد تشفعن في بعض من لاذوا بهن من بني قريظة اذ روي:[1] أن سلمى بنت قيس - احدى خالات النبي جاءته فسألته رفاعة بن شمويل القرظي وكان رجلا يعرفهم قبل ذلك، فلاذ بها وقال انه سيعتنق الاسلام فوهبه لها. ونلاحظ أنه الرجل الوحيد الذي ذكر أنه اعتنق الاسلام من بني قريظة بعد حكم سعيد بن معاذ، وربما كان هناك غيره، الا أنا نلاحظ أن النبي لم يشترط في العفو عن الزبير بن باطا أن يعتنق الاسلام وانما أطلقه لاقتناعه بوجاهة السبب الذي أبداه من جاء يتشفع له. وكما تجاوز النبي عن بعض الناس كذلك أمر في تقسيم السبي أن لا يفرق بين الأم وولدها حتى يبلغوا[2].

(١) ابن هشام/ م ٢ ص ٢٤٤.

(٢) تاريخ الطبري جـ ٢ ص ٢٥٢.

ومن الفيء[1] أخذ النبي ريحانة بنت زيد لنفسه صفيا، وما زال بها ثعلبة بن سعية حتى أسلمت، فخيرها النبي بين أن تكون في ملكه أو يعتقها ويتزوجها، فقيل اختارت أن تكون في ملكه، وقيل أعتقها وتزوجها[2]. وبعث بطائفة من السبي الى الشام مع سعد بن عبادة ليبيعهم ويشتري بثمنهم سلاحا، كما بعث بطائفة أخرى الى نجد لنفس الغرض[3]. وأرى أنه بجانب توفير السلاح للمسلمين بثمن السبي، فقد كان لارسالهم الى نجد والشام مغزى آخر هو ارهاب القبائل العربية من عاقبة مقاومة النبي ومحاربته وحتى يشيع الخبر في كل أرجاء الجزيرة العربية فيعلم الناس أن النبي والمسلمين لن يتنازلوا عن دعوتهم وسيحاربون من يحاربهم بغير هوادة أو لين. كما أن ارسال السبي الى الشام يفيد اشارة خاصة للجماعات اليهودية المقيمة شمالي المدينة حتى تعلم أي مصير ينتظرها ان هي أقدمت على حرب الرسول.

---

(١) امتاع الأسماع جـ ١ ص ٢٤٩ وابن هشام/ م ٢ ص ٢٤٥.
(٢) امتاع الأسماع جـ ١ ص ٢٤٩.
(٣) تاريخ الطبري جـ ٢ ص ٢٥٢.

خيبر وما حولها

لم يكد النبي يفرغ من مقتلة بني قريظة حتى عم الخبر الأطراف المجاورة للمدينة وأخذ ينتشر الى ما وراءها، ولقد كان يهود خيبر وعلى رأسهم بنو النضير أكثر الناس تطلعا لمعرفة أخبار بني قريظة لارتباط مصير زعيمهم حيي بن أخطب بما يحدث لكعب بن أسد وقومه. ولما كانت ديار غطفان بظاهر المدينة وتربطهم ببني النضير أحلاف قديمة وعداوة للنبي والمسلمين، سار حسيلة بن نويرة الأشجعي الغطفاني مدة يومين الى أن قدم خيبر وأخبرهم بما حدث في المدينة[1] فصاح نساؤهم وأقمن المآتم حزنا على حيي بن أخطب الذي ظل يدافع عن مجد يهود وبني النضير حتى آخر رمق من حياته ففقدن به بطلا عزيزا على قومه جديرا منهن بالرثاء والبكاء.

وفي تلك الغمرة فزع الرجال الى سلام بن مشكم ليروا رأيه، فقال في نفثة اليائس المكلوم: «هذا كله عمل حيي بن أخطب لا قامت يهودية بالحجاز أبدا»[2] فحزن سلاّم على حيي لم يثنه عن أن يحمله تبعة ما ألحقه بنفسه وبقضية اليهود. ولعلّ سلاما قد طافت بذهنه في تلك اللحظات أطياف الماضي وأحداثه وما كان يدور بينه وبين حيي من جدال حول موقفهم من

(١) امتاع الأسماع جـ ١ ص ٢٥٣.
(٢) المصدر نفس.

النبي ومقاومته أو موادعته، وتقدير كل منهما لما ينبغي أن يفعل. وهذه العبارة من سلاّم تتفق وما كان يراه في حيي من حب للمغامرة بنفسه وبقومه، ولقد جاهره بذلك الرأي مرارا. ولئن كان سلام قد حمل حييا تبعة جلاء بني النضير من قبل، فلقد حمله تبعة القضاء على بني قريظة وعلى نفسه آخر الأمر، بل وتبعة القضاء على آمال اليهود في أرض الحجاز.

وكما كان سلاّم عاتبا على حيي فلقد كان حانقا على مشركي العرب ويائسا من نصرتهم، اذ أنه أشار على من فزعوا اليه «بأن يسيروا معه، ويهود تيماء وفدك، ووادي القرى، ولا يجلبوا معهم أحداً من العرب حتى يغزو محمدا في عقر داره فوافقوه على ذلك»[1] وهذا الموقف يلقي ضوءا على طبيعة العلاقة بين مشركي العرب واليهود، وهي علاقة ظاهرها التحالف ضد النبي والمسلمين وباطنها الشك والريب، وربما كانت الكراهية أيضا. غير أن اليهود أحسوا فيما يبدو أنه لا غناء لهم عن الاستعانة بالعرب، اذ لم يبلغنا أنهم أنفذوا ما أشار به عليهم سلام بن مشكم وربما كانوا قد خالفوه فتنحى عن قيادتهم وتركهم ليجربوا أمرهم مع العرب مرة أخرى.

فتولى القيادة أبو رافع سلاّم بن أبي الحقيق[2]، فأجلب في غطفان ومن حوله من مشركي العرب، وجعل لهم الجعل العظيم لحرب الرسول، فسارع النبي قبل أن يتفاقم الأمر وتتكرر تجربة الخندق، فأرسل سرية الى أبي رافع بقيادة عبد الله بن عتيك الذي كان يرطن باليهودية، مما يدل على أن يهود الحجاز أو على الأقل يهود خيبر كانوا يحتفظون بلغتهم العبرية رغم بقائهم زمانا طويلا في بلاد العرب. ولقد تمكنت السرية من اغتيال أبي رافع ليلا في منزله بخيبر وعادت الى المدينة. ولقد آثرت أن أضع مقتل أبي رافع في هذا الموضع كما وضعه ابن سعد[3] وكما وضعه ابن هشام عن ابن اسحق[4] وهما

---

(١) المصدر نفسه.

(٢) ابن سعد جـ ٢ القسم الأول ص ٦٦.

(٣) المصدر نفسه.

(٤) ابن هشام/ م ٢ ص ٢٧٣-٢٧٥.

يختلفان عن رواية الطبري عن ابن اسحق الذي جعل مقتل أبي رافع بعد مقتل كعب بن الأشرف في سنة ثلاث للهجرة[1]. وروايتا ابن هشام وابن سعد عن الواقدي عندي أرجح ذلك أنه من المستبعد أن يرسل النبي لقتل أبي رافع في خيبر في تلك الأيام اذ أن ذلك كان سيوسع دائرة خصامه مع اليهود فتشمل الذين داخل المدينة والمقيمين بعيدا عنها لأنهم سيعتبرون أنفسهم حماة لأبي رافع الذي اغتيل من بينهم ومن واجبهم أن يثأروا له ويجتهدوا في العداء للنبي والمسلمين، وهذا ما لم يرد أنهم فعلوه قبل جلاء بني النضير، كما لا أرى أن أبا رافع يمكن أن يرقى الى مرتبة قيادة اليهود قبل مقتل حيي بن أخطب ولذلك أرجح أنه تسلم القيادة بعد مقتل حيي، وفشل سلاّم بن مشكم وهذا يتفق مع ما ذكره ابن سعد عن الواقدي ومع ما رواه ابن هشام عن ابن اسحق.

وبعد مقتل أبي رافع تأمر على اليهود أسير بن زارم[2]، ولم يذكر الرواة ان كان من بني النضير أم من يهود خيبر، وأرجح أنه من زعماء يهود خيبر اذ يبدو أنهم لما رأوا فشل زعماء بني النضير آثروا أن يقوم بذلك رجل من غيرهم، ومما يقوي هذا الترجيح أن أسيرا هذا قبل مبدأ التفاوض مع النبي في أن يكون واليا له على خيبر، فلو لم يكن من ساداتها لصعب عليه أن يتطلع الى مثل ذلك المنصب الخطير، اذ بنو النضير كما لا يخفى غرباء في خيبر فهم فيها بمثابة اللاجئين المستنصرين لا بمثابة السادة الحاكمين، ولقد انتهى أمر أسير كما انتهى أمر أبي رافع من قبله. وذلك أن النبي لما علم بما يقوم به أسير وجه عبد الله بن رواحة في ثلاثة نفر سراً فسأل عن خبره وغرته فأخبر بذلك، فقدم على النبي فأخبره فندب النبي الناس فانتدب له ثلاثون رجلا فبعث عليهم عبد الله بن رواحة، فقدموا على أسير فقالوا: نحن آمنون حتى نعرض عليك ما جئنا له قال: نعم ولي منكم مثل ذلك. فأجابوه. ثم قالوا له: ان

---

(١) تاريخ الطبري جـ ٢ ص ١٨٢-١٨٥.

(٢) ابن سعد جـ ٢ القسم الأول ص ٦٦-٦٧، وامتاع الأسماع جـ ١ ص ٢٧٠-٢٧٢.

رسول الله (ﷺ) قد بعثنا اليك لتخرج اليه فيستعملك على خيبر ويحسن اليك، فطمع في ذلك، فخرج وخرج معه ثلاثون رجلا من اليهود مع كل رجل رديف من المسلمين. فلما توغلوا في الطريق ندم أسير وأهوى بيده الى سيف عبد الله بن أنيس، أحد المسلمين الذين كانوا في السرية وكان أسير رديفا له. قال عبد الله: «ففطنت له ودفعت بعيري وقلت غدرا أي عدو الله، فعل ذلك مرتين، فنزلت فسقت بالقوم حتى انفرد لي أسير فضربته بالسيف فأندرت عامة فخذه وساقه وسقط عن بعيره وبيده مخرش فضربني مأمومة وملنا على أصحابه فقتلناهم كلهم غير رجل واحد أعجزنا شدا. ولم يصب من المسلمين أحد. ثم أقبلنا على رسول الله (ﷺ) فحدثناه الحديث. فقال: قد نجاكم الله من القوم الظالمين».

ونحن لا ندري على وجه التحديد واليقين ان كان النبي قد فكر في الاتفاق مع أسير بن زارم ومهادنة اليهود ريثما يفرغ من أمر قريش أم أن تلك السرية قد أرسلت لقتل أسير فاحتالوا عليه بتلك الحيلة التي أودت به. وأيا ما كان الأمر فان خيبر قد أصبحت مركزا للمعارضة، وملجأ يخرج منه المحرضون على النبي وكلما قتل منهم واحدا قام مكانه محرض آخر. وأرى أن النبي كان يضع خطر اليهود في ذلك الوقت فوق كل خطر آخر ولذلك قبل شروط قريش في معاهدة الحديبية رغم معارضة كثير من أصحابه[1] وذلك حتى ينصرف الى فتح خيبر التي يضاهي بعض المفسرين فتحها بفتح مكة ويرون أنها المشار اليها بالفتح المبين الذي ورد ذكره في القرآن ﴿انا فتحنا لك فتحا مبينا ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر﴾[2].

(١) ابن هشام م ٢ ص ٣٠٨-٣٢٧.

(٢) سورة الفتح الآية الأولى وانظر تفسير الطبري الجزء السادس والعشرين ص ٤٥ طبعة بولاق.

فتح خيبر:[1]

وبقي النبي قليلا في المدينة بعد عودته من الحديبية، ثم أمر المسلمين بالتهيؤ والسير بغتة الى خيبر، ونزل حول حصون خيبر ليلا وأهلها لا يعلمون حتى اذا أصبح الصباح خرجوا الى نخيلهم ومزارعهم ومعهم أدوات الزراعة فرأوا جيش المسلمين وتصايحوا: محمد والخميس. ثم ولوا هاربين الى حصونهم. فكبر النبي: الله أكبر خربت خيبر، انا اذا نزلنا بساحة قوم فساء صباح المنذرين». ولما سمعت غطفان بسير النبي الى خيبر جمعوا له ثم خرجوا ليظاهروا حلفاءهم عليه فقاتلوه معهم شهرا[2] ثم خشوا أن يؤتي أهلهم من خلفهم فرجعوا الى ديارهم وتركوه يحاصر خيبر شهرا آخر. ولقد نجح النبي في عزل غطفان عن مساعدة اليهود. وربما كان قد أوكل الى جزء من جيشه مهمة مناوشة ديار غطفان حتى ينصرفوا لحمايتها ويتركوه وشأنه مع أهل خيبر وهو مطمئن على المدينة. وهو بهذا انما يتبع أسلوب العزل الذي اتبعه مع القبائل اليهودية في داخل المدينة حين نجح في عزلها عن أن ينصر بعضها بعضا أو أن ينصرها حلفاؤها من الأوس أو الخزرج. ولقد مكنته معاهدة الحديبية من أن يطيل أمد الحصار وأن يواصل حربه مع اليهود.

ثم بدأ النبي بحصون خيبر يفتتحها حصنا، حصنا، واقتتل اليهود والمسلمون قتالا شديدا عند تلك الحصون، وكان من أبرز فرسان اليهود مرحب وياسر[3]، ومن أبرز فرسان المسلمين محمد بن مسلمة، وعلي والزبير، ولما أيقن اليهود بالهلكة ان هم استمروا في القتال، سألوا النبي أن يسيرهم ويحقن لهم

---

(١) ابن هشام ص ٣٣٨-٣٥٨، وتاريخ الطبري جـ ٢ ص ٢٩٨-٣٠٧، وابن سعد جـ ٢ القسم الأول ص ٧٧-٩٢، وامتاع الأسماع جـ ١ ص ٣٠٩-٣٣٢، والمغازي للواقدي ص ٣١٢-٣٢٠، وعيون الأثر جـ ٢ ص ١٣٠-١٤٥، والأموال ص ٧٣.

(٢) المغازي للواقدي ص ٣١٢، وانظر ابن هشام/ م ٢ ص ٣٣٠.

(٣) ابن هشام م/ ٢ ص ٣٣٢-٣٣٤.

دماءهم، وهذا شبيه بما عومل به بنو قينقاع[1]، وبنو النضير[2] وبما طلب أن يعامل به بنو قريظة[3]، ولئن كان النبي قد رفض أن يستجيب لبني قريظة لاختلاف أمرهم وظروفهم، فانه قد قبل طلب يهود خيبر ولكنه اشترط عليهم ألا يكتموه شيئا فقبلوا شرطه. ويبدو أن النبي كان يميز بين يهود خيبر وبين من لجأوا اليهم من بني النضير وكان يرى هؤلاء الأخيرين أشد خطرا اذ أنهم أصحاب ثـأرات سيطلبونها ما وجدوا اليها سبيلا. وربما كان يخشى أنهم قد يخفون أموالهم ويخرجون بها ليستعينوا بها على حربه مرة أخرى، ولذلك سأل كنانة بن أبي الحقيق عن كنزهم فأنكر كنانة، وزعم أنهم أنفقوه في الحرب، فقال له النبي: «برئت منكم ذمة الله وذمة رسوله ان كان عندكم؟ فقال: نعم ثم قال النبي: كل ما أخذت من أموالكم وأصبت من دمائكم فهو حل لي ولا ذمة لكم؟ قال: نعم. وأشهد عليه عدة من المسلمين واليهود. فدله رجل من اليهود على خربة كان كنانة يطوف حولها دائما، فأمر النبي بأن يحفر ذلك الموضع فوجد فيه كنزا في مسك جعل فيه حلي، فأمر الزبير أن يعذب كنانة حتى يستخرج جميع ما عنده، فعذبه الزبير حتى جاءه بمال، دفعه الى محمد بن مسلمة فقتله بأخيه محمود الذي كان اليهود قد قتلوه أيام الحصار[4].

ولقد كان مقتل كنانة نهاية مقاومة بني النضير ويهود خيبر للنبي، اللهم الا ما كان من محاولة زوج سلام بن مشكم اغتيال الرسول بأن دست له السم في شاة مصلية أهدتها اليه[5] فأكل منها ومعه بشر بن البراء بن معرور[6] وسرعان ما تبين للنبي السم فكف وكف معه بشر الا أن بشرا مات لتوه وظل

(١) المغازي للواقدي ص ٣١٤.
(٢) المغازي للواقدي ص ١٣٩.
(٣) امتاع الأسماع جـ ١ ص ١٨٠.
(٤) المصدر نفسه ص ٣١١-٣١٢.
(٥) تاريخ الطبري جـ ٢ ص ٣٠٣.
(٦) ص ٣٦ من هذه الرسالة.

النبي يعاني من ذلك السم بقية حياته. وقد اختلف الرواة في أمر قتله تلك المرأة وعفوه عنها[1].

ويبدو أن النبي رأى أن يتألف اليهود ويخفف عليهم وقع الهزيمة فتزوج صفية بنت حيي بن أخطب أشهر سادتهم وأشدهم عداوة له فأسلمت صفية وصارت احدى أمهات المؤمنين[2]. وأراد يهود خيبر أن يظلوا على أرضهم فسألوا النبي أن يعاملهم بالمزارع على النصف وقالوا: نحن أعلم بها منكم وأعمر لها، فصالحهم على ذلك ولكنه اشترط عليهم قائلا: على أنا اذا شئنا أن نخرجكم منها أخرجناكم»[3]. وأرسل يهود فدك[4] الى النبي ليصالحهم على مثل ما صالح عليه أهل خيبر، فقبل ذلك فكانت خيبر فيئا للمسلمين لأنهم افتتحوها عنوة، وكانت فدك خالصة للنبي لأنهم لم يجلبوا عليها بخيل ولا ركاب. ثم سار النبي من خيبر الى وادي القرى[5]، وكانت معقلا من معاقل اليهود، فقاتله أهلها ثم رضوا بعد ذلك أن يستسلموا، فأخذها عنوة وغنم ما فيها فقسمه وعامل يهودها على النخل. ولم يبق الا يهود تيماء فطلبوا من النبي الصلح فصالحهم على الجزية[6]، وكانت أول جزية في الاسلام تفرض على المصالحين من أهل الكتاب.

وأرسل النبي عبد الله بن رواحة في العام الأول الى خيبر[7] ليخرص بينهم وبين المسلمين، فكان اذا لم يرضوا قسمه أو قالوا له تعديت علينا خيرهم وقال: ان شئتم فلكم وان شئتم فلنا؟ «فأعجب اليهود بعدله وقالوا: بهذا قامت السموات والأرض».

---

(١) امتاع الأسماع جـ ١ ص ٣٢٢ والمغازي للواقدي ص ٣١٦.
(٢) نهاية الأرب للنويري جـ ١٨ ص ١٨٦-١٨٨ وانظر الروض الأنف جـ ٢ ص ٢٤٠.
(٣) تاريخ الطبري جـ ٢ ص ٣٠٢.
(٤) امتاع الأسماع جـ ١ ص ٣٣١ وابن هشام/ م ٢ ص ٣٥٣.
(٥) امتاع الأسماع جـ ١ ص ٣٣٢ - وانظر تاريخ الطبري جـ ٢ ص ٣٠٣.
(٦) امتاع الأسماع جـ ١ ص ٣٣٢.
(٧) تاريخ الطبري جـ ٢ ص ٣٠٦.

ولما أصيب عبد الله بن رواحة في غزوة مؤتة[١]، اختار النبي مكانه جبار بن صخر بن خنساء أخو بني سلمة[٢]، ويبدو أنه كان مسؤولا كذلك عن أمر بقية اليهود في فدك ووادي القرى وتيماء وغيرهم من البطون اليهودية الصغيرة في المنطقة، وبقي الأمر كذلك بقية حياة النبي ومدة خلافة أبي بكر وصدرا من خلافة عمر حتى تم جلاء اليهود من جزيرة العرب في عهد عمر بن الخطاب في سنة عشرين أو احدى وعشرين للهجرة[٣].

---

(١) ابن هشام / م ٢ ص ٣٥٤.

(٢) الاصابة المجلد الأول ص ٤٤٨.

(٣) انظر بن هشام / م ٢ ص ٣٥٤-٣٥٧، وتاريخ الطبري جـ ٢ ص ٣٠٧، ومجموعة الوثائق السياسية رقم ١٩ ص ٤١، ورقم ٢٠ ص ٤٢، ورقم ٣٣ ص ٥٧-٥٨ ورقم ٣٤ ص ٥٩-٦١. والمصورة الشمسية لمخطوطة - «عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان» للعيني - الجزء الثامن، القسم الثالث ص ٤٤٦-٤٤٧ - دار الكتب المصرية رقم المخطوطة تاريخ ١٥٨٤.

خاتمة

الصراع الذي بدأ جدالا وانتهى قتالا بين النبي واليهود يرجع الى عدة أسباب يقف العامل الديني على رأسها وتتلوه أسباب تاريخية وعوامل اقتصادية، وكان من أهم أسباب هزيمة اليهود في هذا الصراع أنهم لم يقدروا خطورة دعوة النبي حق قدرها، أول الأمر، فحسبوا أنه لا يعدو أن يكون شيخا ممن ألفوا من شيوخ القبائل لا تتجمع القبيلة حوله الا ريثما تنفض أو تنتقض عليه. وقدروا أن محاولته للجمع بين الأوس والخزرج محاولة فاشلة يقوم بها رجل لا يعرف عظم الشقاق بين تينك القبيلتين معرفة اليهود الذين عاصروا أحداثه دهرا طويلا حتى أيقنوا أنه وصل مرحلة لا ترأب صدوعها ولئن رئبت فانما هي هدنة موقوتة بأمد لن يطول.

ولقد فات عليهم أنهم غرباء في بلاد العرب رغم طول الاقامة فيها، وأن دعوة النبي تحمل بذور الجمع بين القبائل العربية المتنافرة وأن شخصيته ودعوته قادرتان على تحقيق تلك الوحدة. وكان اليهود في صراعهم يعتمدون على الحماسة أكثر من اعتمادهم على التدبير، كما أنهم أسرفوا في الاعتماد على القوى المعادية للنبي من العرب أكثر من اعتمادهم على توحيد القبائل اليهودية.

أما أسلوبهم في المقاومة فقد اعتمدوا فيه على المغامرة أكثر من اعتمادهم على التنظيم والمصابرة. فبنو قينقاع وهم يجاهرون النبي العداء لا يتورعون عن كشف سوءة امرأة من العرب في السوق لمجرد العبث ولا يقدرون ما يجره

عليهم هذا الصنيع من أخطار حتى يجدوا أنفسهم قد أخرجوا عن المدينة، وكعب بن الأشرف يذهب الى مكة يحرض أهلها على القتال ثم يعود الى المدينة فلا يدرك خطورة العودة حتى يلقى حتفه، وبنو النضير يأتمرون بقتل النبي فلما يأمرهم بالخروج يرفضونه اغترارا بوعد ابن أبي فيصادرون ويخرجون جزاء مغامرتهم، وكذلك بنو قريظة يغامرون بقبيلتهم كلها لقاء رهن لم يتسلموه وما صنيع أبي رافع أسير بن زارم، وتفريطهما في نفسيهما وهما يعدان لحرب النبي بأقل درجة في المغامرة من كعب بن الأشرف وكعب بن أسد وحيي بن أخطب. وهكذا كان اليهود في صراعهم يفتقدون القيادة الراشدة التي تعلو على المغامرة وتتسع لقيادة كل القبائل اليهودية في معركة واحدة.

وفي الجانب الآخر كان يقف النبي في مواجهة اليهود في المدينة فبنى خطته على الاعتراف بالحقائق القائمة، فاعترف بهم كقوة قائمة، يحسب حسابها، واعترف لهم بكيانهم الخاص وبأحلافهم مع الأوس والخزرج وبحريتهم في العقيدة وذلك في أول معاهدة عقدها لتنظيم الأحوال في المدينة، وبدأ جداله معهم باعتبارهم أصحاب كتاب مقدس عند المسلمين، ولما اشتدت وطأة الجدال بينهم وبين المسلمين أمر أتباعه بالصبر على أذاهم حتى لا ينجرفوا الى معارك تستنفد قواهم وتفتح ثغرة للخلاف بين أتباعه، وهو يعلم ما يربط بين بعضهم واليهود من أحلاف.

ولما تطور الجدال الى صدام اتبع معهم سياسة بارعة في العزل، فاستطاع أن يعزلهم عن نصرة بعضهم بعضا بالمباغتة وضرب المخططين وترك الآخرين، واستطاع أن يعزلهم عن نصرة حلفائهم بأيقاع العقوبة عليهم كل مرة بقدر ما تحتملها وحدة المسلمين، وكان يوكل أمر عقوبتهم الى حلفائهم من الأوس أو الخزرج ويختار لذلك رجالا لهم السيادة في قبائلهم في الجاهلية والاسلام. ولقد كانت مقاومة اليهود تزداد عنفا في كل مرة وكانت عقوبة النبي لهم تزداد اشتداد عقب كل محاولة، وهكذا كان يمضي هذا الصراع متصاعدا وينتهي في كل مرة بانتصار النبي وبخروجه من كل معركة أقوى مما كان. واذا استطعنا

أن نوجز وصف هذا الصراع المتصاعد الذي دار لقلنا انه كان صراعا بين المغامرة التي ترتكز على الحماسة والانفعال وبين العقل الثاقب الذي يرتكز على دقة التفكير والتقدير.

المراجع العربية

(١) **قبائل الخزرج أخي الاوس:** الدمياطي: مخطوطة بمعهد المخطوطات بجامعة الدول العربية. تاريخ ٨٧٣.

(٢) **الأغاني:** أبو الفرج الأصفهاني: مطبعة محمد علي بمصر.

(٣) **الاكليل الجامع:** الهمداني: مخطوطة بمعهد المخطوطات بجامعة الدول العربية. تاريخ ٩٠٢.

(٤) **امتاع الأسماع:** المقريزي: مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر القاهرة ١٩٤١.

(٥) **أنساب الأشراف:** البلاذري: مخطوطة دار الكتب المصرية تاريخ / ١١٠٣.

(٦) **البداية والنهاية:** ابن كثير: مطبعة السعادة.

(٧) **تاريخ آداب اللغة العربية:** بروكلمان ترجمة الدكتور عبد الحليم النجار: دار المعارف القاهرة.

(٨) **تاريخ الامم والملوك:** محمد بن جرير الطبري: مطبعة الاستقامة ـ القاهرة ١٣٥٧ هـ ـ ١٩٣٩ م.

(٩) **تاريخ العرب قبل الاسلام:** الدكتور جواد علي: مطبعة المجمع

العلمي العراقي ١٣٧٦ هـ ١٩٥٧ م.

(١٠) **تاريخ المدينة المنورة** «وفاء الوفاء» السمهودي: مطبعة الآداب والمؤيد مصر ١٣٢٦ هـ.

(١١) **تاريخ اليهود في بلاد العرب في الجاهلية وصدر الاسلام**: اسرائيل ولفنسن مطبعة الاعتماد القاهرة ١٩٢٧ م.

(١٢) **التعريف بما أنست الهجرة من معالم الهجرة**: محمد بن أحمد الخزرجي: مخطوطة بمعهد المخطوطات بجامعة الدول العربية تاريخ رقم ١٨١.

(١٣) **تفسير القرآن**: الطبري: المطبعة الأميرية ببولاق ١٣٢٣ هـ.

(١٤) **جوامع السيرة**: ابن حزم: دار المعارف بمصر.

(١٥) **خزانة الأدب**: البغدادي: دار العصور بمصر.

(١٦) **ديوان السموأل**: السموأل بن عادياء: مصر.

(١٧) **ديوان عروة بن الورد**: عروة بن الورد: مكتبة صادر ببيروت.

(١٨) **الروض الأنف**: السهيلي: مطبعة الجمالية - مصر ١٣٣٢ هـ - ١٩١٤ م.

(١٩) **سنن ابي داود**: ابو داود السجستاني: مطبعة مصطفى محمد - مصر.

(٢٠) **السيرة النبوية**: ابن هشام: مطبعة مصطفى البابي الحلبي الطبعة الثانية ١٣٧٥ هـ - ١٩٥٥ م.

(٢١) **صحيح البخاري**: البخاري: ادارة الطباعة المنيرية مصر.

(٢٢) **طبقات فحول الشعراء**: محمد بن سلاّم الجمحي: دار المعارف.

(٢٣) **الطبقات الكبرى**: محمد بن سعد طبعة ليدن ١٣٢٥ هـ.

(٢٤) **عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان:** العيني: مخطوطة بدار الكتب المصرية تاريخ ١٥٨٤.

(٢٥) **عيون الأثر:** ابن سيد الناس: طبعة القدس - مصر ١٣٥٦ هـ.

(٢٦) **كتاب اسماء من الأشراف في الجاهلية والاسلام:** محمد بن حبيب: مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر القاهرة ١٩٥٤ هـ تحقيق عبد السلام هارون لمسلسلة نوادر المخطوطات رقم ٦.

(٢٧) **كتاب الاصابة في تمييز الصحابة:** الحافظ بن حجر العسقلاني كلكتا.

(٢٨) **كتاب الاكتناء** الكلاعي:

(٢٩) **كتاب الاموال:** أبو عبيد القاسم بن سلاّم: مطبعة حجازي - القاهرة ١٣٥٣ هـ.

(٣٠) **كتاب انساب الأشراف:** البلاذري: طبقة الجامعة العبرية بالقدس.

(٣١) **كتاب الخبر عن البشر:** المقريزي: دار الكتب المصرية مخطوطة تاريخ / ٩٤٧.

(٣٢) **كتاب المجبر:** محمد بن حبيب: طبعة حيدر أباد ١٣٦١ هـ - ١٩٤٢ م.

(٣٣) **الكتاب المقدس:** طبعة جيعية الكتاب المقدس بالقاهرة.

(٣٤) **لسان العرب:** ابن منظور: المطبعة الميرية ببولاق ١٣٠٠ هـ.

(٣٥) **اللؤلؤ والمرجان:** محمد فؤاد عبد الباقي - القاهرة مطبعة دار الكتب المصرية ١٣٦٤ هـ.

(٣٦) **مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوي والخلافة الراشدة:** الدكتور محمد حميد الله - القاهرة ١٩٥٨ م.

(٣٧) **المستدرك على معجم البلدان:** محمد أمين الخانجي: مطبعة دار مصر.

(٣٨) **المصارف:** ابن قتيبة الدينوري: المطبعة الاسلامية مصر ١٩٣٤.

(٣٩) **معجم البلدان:** ياقوت الحموي: دار صادر بيروت.

(٤٠) **معجم ما استعجم:** عبد الله بن عبد العزيز البكري ـ القاهرة م.

(٤١) **المعجم المفهرس لالفاظ القرآن:** محمد فؤاد عبد الباقي ـ مطبعة دار الكتب المصرية ١٣٦٤ هـ.

(٤٢) **المغازي:** محمد بن عمر الواقدي. طبعة مصر ١٩٤٨.

(٤٣) **المغازي الاولى ومؤلفوها:** يوسف هوروفتس ـ مطبعة الحلبي القـ

(٤٤) **نهاية الأرب في أنساب العرب:** القلقشندي ـ مطبعة النجاـ البيان بغداد ١٩٥٨ م.

(٤٥) **نهاية الأرب في فنون الأدب:** النويري: طبعة دار الكتب ١٩٥٥ م.

(٤٦) **التوراة جاءت من جزيرة العرب:** كمال سليمان الصليبي ـ عفيف الرزاز ـ مؤسسة الأبحاث العربية ـ بيروت ١٩٨٦ الطبعة الـ

المراجع الأجنبية

(1) Awn al-Sharif Quasim. **A critical re-examination of the Treaties and Letters of Mohamed:** School of Oriental and African Studies M. A. 1961.

(2) **The Encyclopaedia Britannica,** 14th ed. London.

(3) GOITEIN, S.D.. **Jews and Arabs:** their contact through the ages. New York, Schocken Books, 1955.

(4) GUILLAUME, A. **Islam,** Great Britain, Penguin Books, Pelican 1961.

(5) HASTINGS, James and others. **Encyclopaedia of Religion and Ethics** — New York, 1911.

(6) **Hebrew - English Dictionary.**

(7) **The Holy Scriptures of the Old Testament, Hebrew and English.** London, British and Foreign Bible Society, 1957.

(8) **The Jewish Encyclopaedia,** U.S.A., Funk and Wangall Company, 1925.

(9) MARGOLIOUTH, D. S., **Mohamed and the Rise of Islam** Putnam, 1905 (Heroes of the Nations).

(10) MUIR, William — **The life of Mohamed,** London, 1861.

(11) **The Standard Jewish Encyclopaedia,** edited by Cecil Roth,

Jerusalem, Tel-Aviv, 1959-9.

(12) TOR ANDRAE, **Mohamed the Man and His Faith,** London, George Allam and Unwin, 1956.

(13) WATT, W. Montgomery — **Mohamed at Medina** — Oxford, Clarendon Press, 1956.

فهرست

صفحة

تقديم ٥

شكر وعرفان ٦

(الفصل الأول) :

تمهيد : صلة اليهود ببلاد العرب في التاريخ القديم........................ ٧

مقدمة ٧

المصادر العبرية ٨

المصادر العربية ١٢

الأوس والخزرج ١٦

الاستعانة بالغساسنة ١٩

قصة الفطيون ٢١

اليهود والحروب بين الأوس والخزرج ٢٣

حرب حاطب ٢٤

يوم الفجار الثاني ٢٥

حرب بعاث.. ٢٦

المسرح قبيل الاسلام ٢٧

مصادر البحث ٢٨

(الفصل الثاني) :

من البعثة الى الهجرة ٢٩
تجارة قريش واليهود ٢٩
التوراة وأبناء قريش ٣٠
الحنفاء واليهودية ٣٠
عرافة خيبر ٣١
اللجوء الى اليهود ٣٢
سورة الكهف ٣٣
استمرار الجدال ٣٤
أثر اليهود في المدينة ٣٥
اليهود وأصحاب العقبة ٣٧
بين البيعتين ٣٨
بعد البيعة الثانية ٣٨

(الفصل الثالث) :

معاهدة المدينة ٤٤
معرض الآراء ٤٨
تاريخ المعاهدة ٤٨
شمول المعاهدة ٤٩
وحدة المعاهدة ٥٠
مناقشة لما تقدم ٥١
نظرات في المعاهدة ٥٧
حقوق اليهود وواجباتهم ٥٧
محاصرة قريش والدفاع والأمن في المدينة ٥٨

(الفصل الرابع) :

مرحلة الجدال والخصام: ٦٠

(الفصل الخامس) :

مرحلة الصدام: ٧٧
بنو قينقاع ٧٧

(الفصل السادس) :

بنو النضير ٨٤
سلّام بن مشكم وأبو سفيان ٨٤
كعب بن الأشرف ٨٦
تجديد العهد ٨٩
موقف النبي من كعب بن الأشرف ٨٩
تربص المعارضة ٩١
شماتة اليهود بعد أحد ٩٣
محاولة بني النضير اغتيال الرسول ٩٣
الأمر بالجلاء ٩٦
حيي وابن أبي ٩٨
جدال سلّام وحيي ١٠٠
عصيان اليهود ١٠٣
الحصار وتحريق النخل ١٠٤
الجلاء ١٠٦
تحريض بني النضير لقريش ١٠٧
تجميع حيي القبائل لغزو المدينة ١٠٩

(الفصل السابع) :

بنو قريظة ١١٢
تسلل حيي بن أخطب ١١٢
حصار بني قريظة ١١٩
تحكيم سعد بن معاذ ١٢٣
تنفيذ الحكم ١٢٦

(الفصل الثامن) :

خيبر وما حولها : ١٣٠
فتح خيبر ١٣٤

خاتمة ١٣٨
المراجع العربية ١٤١
المراجع الأجنبية ١٤٥
الفهرست ١٤٧